رواية

بركة الشيطان

جورج صاند

ترجمة:
الأمجد العثماني

كتوباتي
kotobati

بركة الشيطان

جورج صاند

La Mare au Diable par George Sand

(Aurore Dupin)

ترجمها من الفرنسية:

الأمجد العثماني

الكتـــــــــاب: بركة الشيطان
تـــــــــأليف: جورج صاند
ترجمـــــــــة: الأمجد العثماني
النوعيـــــــــة: روايـــــــة
صدرت أول مـــرة: 1846م
صدر عن كتوباتي: 2024م
التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.
وكل حقوق الترجمة محفوظة لدى المترجم.

الفهرس

جورج صاند 5
حول الرواية 7
الملخص 10
ملاحظة 11
أنا المؤلف للقارئ 14
الحراثة 22
الأب موريس 34
جيرمان الحرّاث النّاعم 39
لاغيليت 47
بيير الصّغير 54
على المستنقع 64
تحت أشجار البلوط العظيمة 72
صلاة المساء 81
رغم البرد 87
تحت النجوم 97
لبؤة القرية 105
المعلم 111
العجوز 120
العودة إلى المزرعة 128
الأم موريس 135

ماري الصغيرة 141
حفلات الزفاف الريفية 146
الكسوة 157
العُرْسُ 170
الملفوف 181

جورج صاند

جورج صاند هو الاسم المستعار لـ" أمانتين أورور لوسيل دوبان دي فرانكويل، بالزواج بارونة دوديفانت" روائية وكاتبة مسرحية وكاتبة رسائل وناقدة أدبية وصحفية فرنسية، ولدت في 1 يوليو 1804 في باريس وتوفيت في 8 يونيو 1876 في قصر نوهان فيك. كانت واحدة من أكثر الكُتّاب الفرنسيين غزارة في الإنتاج، حيث كان لها أكثر من 70 رواية باسمها و50 مجلداً من الأعمال المختلفة، بما في ذلك القصص القصيرة والحكايات والمسرحيات والنصوص السياسية. وعلى غرار جدتها الكبرى، لويز دوبان، التي كانت معجبة بها، دافعت جورج صاند عن المرأة ودافعت عن العاطفة وانتقدت الزواج وحاربت التحيزات التي كان المجتمع المحافظ يتسم بها. عرفت بحياتها العاطفية المضطربة، وبثيابها الذكورية التي كانت ترتديها، والتي كانت قد وضعت لها موضة الموضة في ذلك الوقت وباسمها المستعار الذي اعتمدته منذ عام 1829 والذي وضعت له أيضًا موضة الموضة: فبعدها وقعت ماري داجولت كتاباتها "دانيال ستيرن"، وفي عام 1843 اتخذت دلفين دي جيرارادان اسمًا مستعارًا "نائب شارل دي لوناي".

على الرغم من كراهية العديد من منتقديها، مثل شارل بودلير وجول باربي دورفيلي، فقد ساهمت جورج ساند مساهمة فعالة في الحياة الفكرية في عصرها، حيث استقبلت في ضيعة نوهان وباليزو شخصيات متنوعة مثل فرانز ليزت وفريديريك شوبان وماري داجولت وأونوريه دي بلزاك وغوستاف فلوبير وأوجين ديلاكروا وهنري شابو، وقدمت المشورة للبعض وشجعت البعض الآخر. وقد حافظت على مراسلات مهمة مع فيكتور هوغو، على الرغم من أن هاتين الشخصيتين العظيمتين لم تلتقيا قط.

حول الرواية

هذه الرواية من بين القصص والروايات التي طالعتها وأنا تلميذ بالمرحلة الإعدادية وقارنتها ببعض عاداتنا السارية في أريافنا آنذاك رغم الفوارق المختلفة، كالبيئة والمجتمع والزمن، وقد ترجمت أغلب ما قرأته بل أقرب الروايات والقصص إلى نفسي إلى اللغة العربية في إطار فتح نافذة مفيدة لشبابنا على الثقافات العالمية وتلبية رغبة ملحة لذاك الطفل الذي عاش معي ولازال يسكن الأعماق !

بركة الشيطان في نظر معاصري جورج صاند والنقاد الفرنسيين:

* رواية "بركة الشيطان" لجورج صاند كانت ولا تزال مثيرة للجدل والنقاش في الأوساط الأدبية الفرنسية. لقد شكلت هذه الرواية نقطة تحول في مسار الرواية الفرنسية، وأثارت حوارات واسعة حول مضمونها وأسلوبها .

نظرة معاصري جورج صاند:

* **الجدل حول الواقعية:** اعتبر بعض معاصريها أن الرواية تمثل انحرافًا عن الرومانسية السائدة في ذلك الوقت، وأنها تميل أكثر إلى الواقعية، حيث تصور حياة الفلاحين البسيطة بكل تفاصيلها.

التحدي للقيم التقليدية: أثارت الرواية جدلاً واسعًا بسبب تناولها لمواضيع اجتماعية حساسة مثل الزواج، والحب، والمرأة، وتحديها للقيم التقليدية السائدة في المجتمع الفرنسي آنذاك.

الاعتراف بأسلوبها الفريد: رغم الجدل، اعترف العديد من النقاد بأسلوب جورج صاند المميز في السرد، وقدرتها على خلق شخصيات واقعية ومقنعة .

*** نظرة النقاد الفرنسيين :**

تأثيرها على الرواية الفرنسية: يرى النقاد أن "بركة الشيطان" كانت نقطة تحول في تاريخ الرواية الفرنسية، حيث ساهمت في تطوير الرواية الواقعية، وفتحت الباب أمام كتاب آخرين لتناول مواضيع اجتماعية شائكة .

*** رمزية الطبيعة:** يركز العديد من النقاد على رمزية الطبيعة في الرواية، وكيف تستخدم جورج صاند الطبيعة لتعكس حالة الشخصيات النفسية.

*** النسوية:** يعتبرون الرواية عملًا نسويًا بامتياز، حيث تتناول قضايا المرأة ومكانها في المجتمع، وتدافع عن حقوقها .

*** أهم النقاط التي تناولها النقاد :** البساطة والواقعية: يثنون على قدرة جورج صاند على تصوير حياة الفلاحين البسيطة بواقعية شديدة، دون أي تجميل أو زخرفة

* .**الشخصيات**: يرون أن شخصيات الرواية متماسكة ومعقدة، وأنها تعكس تنوع المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت .

* **اللغة**: يصفون لغة الرواية بأنها بسيطة وواضحة، مما يسهل على القارئ فهم المعاني والأفكار .

* **الأثر الاجتماعي**: يرون أن الرواية أثرت بشكل كبير على المجتمع الفرنسي، حيث ساهمت في زيادة الوعي بالقضايا الاجتماعية، ودفعت بالكثيرين إلى المطالبة بإصلاحات اجتماعية .

* **الخلاصة** :رواية "بركة الشيطان" كانت ولا تزال عملًا أدبيًا مهمًا، أثرت بشكل كبير على مسار الرواية الفرنسية. وقد شكلت موضوعًا للنقاش والحوار بين النقاد والباحثين على مر العصور.

الملخص

" بركة الشيطان" هي رواية لجورج ساند. نُشرت الطبعة الأولى في باريس عام 1846. ترتبط بشكل عام بسلسلة روايات جورج صاند المسماة بروايات "الريف"، ورواية "بركة الشيطان" هي رواية قصيرة تصف قصة حب تدور أحداثها في مجتمع الفلاحين في "بيري"، والتي تعمدت الكاتبة أن تعطي رؤية مثالية جزئياً لها، على الرغم من أنها تتضمن أيضاً وصفاً دقيقاً لبعض الجوانب، مثل زواج الفلاحين الذي يشكل موضوع ملحقها. حققت هذه الرواية نجاحًا فوريًا عند نشرها وظلت واحدة من أشهر روايات الكاتبة. وقد أُحيطت الرواية نفسها بـ"تنويه" تشرح فيه المؤلفة الأسباب التي دفعتها لكتابة "بركة الشيطان"، و"ملحق" استُخدمت فيه قصة زواج جيرمان كذريعة لتسجيل تقاليد "بيري[1]".

[1] Berry بيري هي مقاطعة تاريخية في فرنسا عاصمتها Bourges

ملاحظة[2]

عندما بدأت، مع "بركة الشيطان"، سلسلة من الروايات الريفية، التي كنت أنوي جمعها تحت عنوان "سهرات شارفور[3]"، لم يكن في ذهني أي نظام، ولا أي ادعاءات ثورية جديدة في الأدب، ولم أرغب في إيجاد طريقة جديدة في القيام بالأشياء. ولكني أعرف أكثر من أي شخص آخر أين أقف من أهدافي الخاصة، وأستغرب دائمًا من أن النقاد يبحثون عن الكثير، في حين أن أبسط الأفكار، وأكثر الظروف ابتذالًا، هي الملهم الوحيد الذي يمكن أن يستجيب له إنتاج الفن. ما من أحد يصنع ثورة من تلقاء نفسه، وهناك بعضها، ولا سيما في الفنون، ينجزها الإنسان دون أن يعرف كيف، لأن كل من يقوم بها هو الذي يقوم بها.

[2] وقد سبقت هذه الملاحظة الرواية منذ طبعة الأعمال المصورة لجورج ساند التي نشرها هيتزل عام 1852.

[3] كان القنب يزرع على نطاق واسع من أجل ساقه الذي ينتج ألياف نسيج قوية، وكان يستخدم في صناعة القماش ولا يزال يستخدم في صناعة الحبال. (...) ولاستخراج ألياف النسيج كان من الضروري إجراء عدة عمليات لاستخراج ألياف النسيج، وكانت مهمة طحان القنب تتمثل في سحق القنب بفكين خشبيين كبيرين، بعد تنقيته مما يلين الساق ويزيل كل ما ليس من الألياف. استخدمت جورج ساند هذا الحرفي في العديد من رواياتها الريفية (فرانسوا لو شامبي، 1847، وليه مايتر سونور، 1853) كراوٍ ومغنٍ، كنوع من "قائد الحلبة" في احتفالات القرية؛ وفي رواية "لا ماري أو ديابل" نراه يعمل في حفل زفاف جيرمان وماري.

ولكن هذا لا ينطبق على رواية الأخلاق الريفية: فقد كانت موجودة في كل العصور وبكل الأشكال، تارةً متكلفة، وتارةً مهذبة، وتارةً ساذجة. وكما قلت، ويجب أن أكرر هنا أن حلم الحياة الريفية كان دائماً المثل الأعلى للمدن وحتى للمحاكم. إنني لم أفعل شيئًا جديدًا باتباع المنحدر الذي يقود الإنسان المتحضر إلى مفاتن الحياة البدائية[4]. لم أرغب في ابتكار لغة يجب أن تكون كذلك. وفي حالة رواية "بركة الشيطان" على وجه الخصوص، فإن ما ذكرته في المقدمة من نقش لهولباين كان قد أذهلني[5] وهو مشهد حقيقي كان أمام عيني في نفس الوقت، في وقت البذر، كل ذلك كان هو الذي دفعني إلى كتابة هذه القصة المتواضعة، التي تدور أحداثها وسط المناظر الطبيعية الجميلة التي كنت أتنقل فيها كل يوم. و إذا سألني أحد عما أردت أن أفعل، فسأجيب بأنني أردت أن أفعل شيئاً مؤثراً جداً وبسيطاً جداً، وأنني لم أنجح في ذلك كما أريد. لقد رأيت، وشعرت بالجمال في البساطة، لكن الرؤية والرسم شيئان مختلفان! أفضل ما يمكن أن يتمناه الفنان هو تشجيع أصحاب العيون على النظر أيضاً. انظروا البساطة أيها الناس، انظروا إلى السماء

[4] في إشارة إلى تقاليد الأدب الرعوي ونمط الحياة الريفي الذي صممته الملكة ماري أنطوانيت.

[5] جورج ساند هو اسم مستعار لذكر. ودائمًا ما كانت تستخدم صيغة المذكر عند الإشارة إلى نفسها في كتاباتها.

والحقول والأشجار والفلاحين قبل كل شيء في كل ما هو حسن وصحيح: سترونها في الكتاب وسترونها أفضل بكثير في الطبيعة.

جورج ساند نوهانت،

12 أبريل 1851

1

أنا المؤلف للقارئ

بعرق جبينك
ستغنم حياتك المسكينة،
بعد طول العمل والعناء،
ها إن الموت يومئ إليك و يدعوك.

هذه الرباعية المكتوبة بالفرنسية القديمة، والموضوعة أسفل لوحة لهولباين[6]، حزينة للغاية في سذاجتها. يُظهر النقش حراثاً يقود محراثه في وسط حقل. ويمتد ريف شاسع على مسافة بعيدة مع أكواخ فقيرة؛ والشمس تغرب خلف التل. إنها نهاية يوم عمل شاق. المزارع عجوز، ممتلئ الجسم ومغطى بخرق بالية. الفريق المكون من أربعة خيول الذي يدفعه إلى الأمام نحيف ومنهك؛ والمحراث يغوص في التربة الخشنة غير الصلبة. هناك

[6] Holbein فنان تشكيلي

شخص واحد فقط في هذا المشهد مبتهج ومبهج من العرق والعصبية إنه شخصية خيالية، هيكل عظمي مسلح بسوط، يركض في الأخدود بجانب الخيول المذعورة ويضربها، فيقوم بدور الحراث للحراث العجوز. هذا هو الموت، وهو الشبح الذي أدخله هولباين مجازاً في سلسلة الموضوعات الفلسفية والدينية المتتالية، الحزينة والمهرج على حد سواء، والتي تحمل عنوان "محاكاة الموت". في هذه المجموعة، أو بالأحرى في هذه التركيبة الواسعة حيث الموت، الذي يلعب دوره في كل صفحة، هو الرابط والفكرة المهيمنة، جمع هولباين بين الملوك والأحبار والعشاق والمقامرين والسكارى والراهبات والمحظيات وقطاع الطرق والفقراء والمحاربين والرهبان واليهود والمسافرين، والعالم كله في عصره وعصرنا، وفي كل مكان كان شبح الموت يتهكم ويهدد وينتصر. إنه غائب عن لوحة واحدة. إنها تلك التي يعلن فيها لعازر[7] المسكين، الملقى على تل ركام عند باب الغني، أنه لا يخافه، لا شك لأنه لا يملك شيئًا ليخسره وحياته موت متوقع. فهل هذا التفكير الرواقي في المسيحية شبه الوثنية في عصر النهضة يبعث على العزاء، وهل تجده النفوس المتدينة مريحاً لها؟ إن الطامح والمخادع

[7] Lazare

والطاغية والفاسق وكل أولئك الآثمين الفطاحل الذين يسيئون إلى الحياة والذين يمسكهم الموت من شعرهم سيعاقبون بلا شك؛ ولكن هل الأعمى والشحاذ والمجنون والفلاح الفقير يعوضهم عن بؤسهم الطويل مجرد التفكير في أن الموت ليس شراً لهم؟ كلا، إن حزناً عنيداً، وقضاءً مروعاً يثقل عمل الفنان. إنه أشبه بلعنة مريرة على مصير البشرية. هذا هو الهجاء المؤلم، الصورة الحقيقية للمجتمع التي كانت أمام عيني هولباين. لقد كانت الجريمة وسوء الحظ هما ما أدهشه، ولكن ماذا سنرسم نحن فناني قرن آخر؟ هل سنبحث في فكرة الموت عن مكافأة الإنسانية الحالية؟ هل سنتذرع به كعقاب للظلم وتعويض عن المعاناة؟ لا، نحن لم نعد نتعامل مع الموت، بل مع الحياة. نحن لم نعد نؤمن بعد الآن بعدمية القبر، ولا بالخلاص الذي يُشترى بالتخلي القسري؛ نحن نريد أن تكون الحياة صالحة، لأننا نريدها مثمرة. يجب أن يترك لعازر ركامه، حتى لا يفرح الفقراء بموت الأغنياء. يجب أن يكون الجميع سعداء، حتى لا تكون سعادة القلة مجرمة وملعونة من الله. والحارث عندما يزرع قمحه يجب أن يعرف أنه يعمل في عمل الحياة، فلا يفرح عندما يسير الموت بجانبه. أخيرًا، يجب ألا يكون الموت عقاب الرخاء أو عزاء الضيق. إن الله لم يقصده عقاباً ولا تعويضاً عن الحياة؛ لأنه قد بارك

الحياة، ويجب ألا يكون القبر ملجأ يجوز أن نرسل إليه من لا نريد إسعادهم. لقد شرع بعض فناني عصرنا، وهم ينظرون نظرة جادة إلى ما يحيط بهم، في رسم الألم، وذل البؤس، ومذلة الشقاء، ومقام لعازر. قد يكون هذا في مجال الفن والفلسفة، ولكن برسم البؤس القبيح جداً، والمنحط جداً، والفاسد جداً أحياناً أخرى هل يتحقق هدفهم، وهل له التأثير المفيد الذي يرغبون فيه؟ لا نجرؤ على القول بل نستطيع أن نقول إنهم بإظهارهم هذه الهاوية المحفورة تحت تربة البذخ الهشة يخيفون الغني السيئ، كما كانوا في أيام الرقص المرعب[8] يرونه الحفرة الفاغرة والموت المستعد لاحتضانه بين أذرعه الكريهة. أما اليوم فنريه قاطع الطريق المتربص ببابه والقاتل المتربص به في نومه. إننا نعترف بأننا لا نفهم حقًا كيف يمكننا أن نصالحه مع الإنسانية التي يحتقرها، وكيف يمكننا أن نجعله يحس بمعاناة الفقراء الذين يخشاهم، بأن نريه الفقير في صورة المحكوم عليه الهارب وقاطع الطريق ليلاً. إن الموت يهدئ من هموم الأغنياء بجعلهم يدفعون ثمن الكثير من رجال الدرك والسجانين والحراب والسجون. وقد أنتج كل من ألبرت دورر ومايكل أنجلو وهولباين وكالو وغويا أعمالاً هجائية قوية عن شرور قرنهم وبلدهم. هذه

[8] في نهاية العصور الوسطى، كانت رقصات الموت نوعاً شائعاً في الرسم والنحت. وقد صوّرت هذه اللوحات واللوحات الجدارية والمذابح موكباً من الهياكل العظمية التي ترقص تحت إشراف الموتى.

أعمال خالدة، وصفحات تاريخية لا يمكن إنكار قيمتها؛ ونحن لا نريد أن ننكر على الفنانين حقهم في التنقيب في جراح المجتمع وتعريتها أمام أعيننا؛ ولكن أليس هناك شيء آخر نفعله الآن غير رسم الخوف والتهديد؟ إننا نحب في هذا الأدب الذي يحوي ألغاز الإثم، والذي جعلته الموهبة والخيال موضة رائجة، الشخصيات الناعمة الرقيقة أكثر من الشخصيات الشريرة ذات التأثير الدرامي. إن هذه الأخيرة تستطيع أن تبادر إلى الهداية وتؤدي إليها، أما الأخرى فهي مخيفة، والخوف لا يعالج الأنانية بل يزيدها. ونحن نعتقد أن مهمة الفن هي مهمة الشعور والحب، وأن رواية اليوم يجب أن تحل محل المثل والاعتذار في العصور الساذجة، وأن للفنان مهمة يجب أن يؤديها. الرهيب الذي يصطك بأسنانه ويعزف على الكمان في صور هولباين ومن سبقوه، لم يجد سبيلاً في هذا الجانب إلى هداية المنحرفين الأشرار ومواساة الضحايا. ألا يسير أدبنا إلى حد ما مثل فناني العصور الوسطى وعصر النهضة؟ فشاربو هولباين يملؤون كؤوسهم بنوع من الغضب لدرء فكرة الموت، الذي لا يراهم أحد فيقوم مقام حامل الكأس. أما الأغنياء الأشرار اليوم فيطلبون التحصينات والمدافع لدرء فكرة الجاكيري[9]، التي

[9] ثورة الفلاحة الفرنسيين على النبلاء

يظهرهم الفن وهم يعملون في الظل في التفاصيل، منتظرين لحظة الانقضاض على الدولة الاجتماعية. استجابت الكنيسة في العصور الوسطى لمخاوف الأقوياء ببيع صكوك الغفران[10] . حكومة اليوم يهدئ من هموم الأغنياء بجعلهم يدفعون ثمن الكثير من رجال الدرك والسجانين والحراب والسجون. وقد أنتج كل من ألبرت دورر ومايكل أنجلو وهولباين وكالو وغويا[11] أعمالاً هجائية قوية عن شرور قرنهم وبلدهم. هذه أعمال خالدة، وصفحات تاريخية لا يمكن إنكار قيمتها؛ ونحن لا نريد أن ننكر على الفنانين حقهم في التنقيب في جراح المجتمع وتعريتها أمام أعيننا؛ ولكن أليس هناك شيء آخر نفعله الآن غير رسم الخوف والتهديد؟ إننا نحب في هذا الأدب الذي يحوي ألغاز الإثم، والذي جعلته الموهبة والخيال موضة رائجة، الشخصيات الناعمة الرقيقة أكثر من الشخصيات الشريرة ذات التأثير الدرامي. إن هذه الأخيرة تستطيع أن تبادر إلى الهداية وتؤدي إليها، أما الأخرى فهي مخيفة، والخوف لا يعالج الأنانية بل يزيدها. ونحن نعتقد أن

[10] في الممارسة الكاثوليكيّة، صكوك الغفران هي مغفرة (محسوبة بعدد من الأيام) من العقوبة التي ستقضيها في المطهر: يتم الحصول عليها مقابل الصلوات والأعمال المختلفة التي هي جزء من فروض الممارسة الدينية. كما تم بيعها أيضًا، على سبيل المثال من قبل البابا ليو العاشر في عام 1512، لأي شخص يتبرع بالمال لإكمال كاتدرائية القديس بطرس في روما. استولى لوثر على هذا البيع الفاضح كمثال على فساد رجال الدين الكاثوليك، وهو فساد عام انتقده الإصلاح.

[11] Albert Dürer, Michel-Ange, Holbein, Callot, Goya,

مهمة الفن هي مهمة الشعور والحب، وأن رواية اليوم يجب أن تحل محل المثل والاعتذار في العصور الساذجة، وأن للفنان مهمة يجب أن يؤديها. إنها مهمة أوسع وأشعر من اقتراح بعض تدابير الحكمة والتوفيق للتخفيف من حدة الخوف الذي أوحت به لوحاته. وينبغي أن تكون غايته أن يجعل الناس يحبون الأشياء التي يود أن يرسمها، و إذا دعت الحاجة إلى ذلك فلا أعتب عليه أن يزينها قليلاً.

فالفن ليس دراسة للواقع الإيجابي؛ و إنما هو بحث عن الحقيقة المثالية، وقد كان كتاب "نائب ويكفيلد" أنفع وأصح للنفس من كتاب "الفلاح المنحرف" و"العلاقات الخطرة[12]". اعذرني أيها القارئ على هذه التأملات، وأرجو أن تتقبلها كمقدمة. ولن يكون في القصة التي سأرويها لك الآن شيء من هذا القبيل، وستكون قصيرة وبسيطة إلى درجة أنني شعرت بالحاجة إلى الاعتذار مقدماً، بأن أقول لك ما أعتقده في القصص الرهيبة.

كان الأمر يتعلق بحراث قادني إلى هذا الاستطراد. إنها بالضبط قصة الحراث التي كنت أنوي أن أرويها لكم وها إنني سأرويها لكم.

---

[12] رو اية "نائب ويكفيلد" (1766) هي رو اية أخلاقية للغاية للكاتب الإنجليزي أوليفييه جولدسميث، وقد حققت نجاحاً كبيراً في فرنسا. أما رو اية "لو بيسان المنحرفة" (1775) للكاتب ريستيف دي لا بريتون ورو اية "العلاقات الخطرة" (1782) للكاتب تشودرلوس دي لاكلوس فتصوران بسخرية الأخلاق الفاسدة في هامش المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر.

2

الحراثة

كنت أنظر إلى لوحة الحراث لهولباين طويلاً وبكآبة عميقة، وكنت أسير في الريف وأنا أحلم بحياة الحقول ومصير الفلاح. لا شك أنه من الكآبة أن يستهلك المرء قوته وأيامه في شق صدر هذه الأرض الغيورة التي سلبت كنوز خصوبتها، عندما تكون قطعة من أخشن الخبز وأسوده، في نهاية اليوم، هي المكافأة الوحيدة والربح الوحيد المرتبط بهذا العمل الشاق. هذه الثروات التي تغطي التربة، هذه المحاصيل، هذه الثمار، هذه الماشية الفخورة التي تنمو سمينة في العشب الطويل، هي ملك لقلة وأدوات لتعب وعبودية الكثيرين. لا يحب رجل الفراغ عموماً لا الحقول، ولا المروج، ولا مناظر الطبيعة، ولا الحيوانات الرائعة التي يجب أن تتحول إلى عملات ذهبية لاستخدامه. يأتي رجل الفراغ لالتماس القليل من الهواء والصحة في الريف، ثم يعود لينفق ثمار تعب عياله في المدن الكبرى. أما رجل العمل، من ناحية أخرى، فهو مثقل بالهموم والتعاسة والخوف من المستقبل بحيث لا يستطيع

أن يستمتع بجمال الريف ومفاتن الحياة الريفية. والحقول الذهبية والمروج الجميلة والحيوانات الرائعة تمثل بالنسبة له أيضاً أكياساً من المال لن يكون له منها إلا نصيب ضئيل لا يكفي حاجاته، ومع ذلك يجب عليه أن يملأ كل عام هذه الأكياس الملعونة ليرضي سيده ويدفع ثمن حق العيش في ضيعته عيشة ضئيلة وبائسة. ومع ذلك، فالطبيعة شابة وجميلة وسخية إلى الأبد. إنها تهب الشعر والجمال لكل الكائنات والنباتات التي يُسمح لها أن تنمو كما تشاء. إنها تمتلك سر السعادة، ولم يستطع أحد أن يسلبها منها. إن أسعد الناس هو الذي يملك علم عمله، ويعمل بيديه، ويستمد الرفاهية والحرية من ممارسة قوته الذكية، ويكون له الوقت ليعيش بقلبه وعقله، ليفهم عمله ويحب عمل الله. والفنان يستمتع بهذا النوع من اللذة في تأمل محاسن الطبيعة واستنساخها؛ ولكنه حين يرى آلام البشر الذين يسكنون هذا الفردوس الأرضي ينزعج الفنان ذو القلب الإنساني المستقيم في غمرة استمتاعه. فالسعادة تكون حيث يعمل العقل والقلب والجوارح في تناسق تحت عين العناية الإلهية، ويوجد انسجام مقدس بين عطاء الله ونشوة النفس البشرية. عندئذ، وبدلاً من الموت البائس المخيف الذي يمشي في ثلمه والسوط في يده، يمكن لرسام الرموز أن يضع إلى جانبه ملاكاً مشعاً يبذر

بكلتا يديه القمح المبارك في الثلم المبخر. والحلم بوجود لطيف وحر وشاعر وكادح وبسيط لرجل الحقل ليس من الصعب تصوره بحيث ينبغي أن يهبط إلى عالم أضغاث الأحلام. إن كلمات فيرجيل الحزينة والرقيقة: "يا لسعادة رجل الحقل لو عرف سعادته!" هي أسف؛ ولكن، مثل كل الأسف، هي أيضًا تنبؤ. سيأتي اليوم الذي يستطيع فيه الحراث أن يكون فنانًا أيضًا، إن لم يكن للتعبير (وهو أمر لن يهم كثيرًا حينها)، فعلى الأقل للشعور بالجمال. هل نعتقد أن هذا الحدس الغامض للشعر ليس موجوداً بالفعل في داخله في حالة من الغريزة والخيال المبهم؟ إن السعادة الخالصة، المحمية بقليل من الغنى، والتي لا تخنق فيها كثرة الشقاء كل نمو أخلاقي وفكري، تكون في حالتها الأولية في حالة الشعور والتقدير؛ وعلاوة على ذلك، إذا كانت أصوات الشعراء قد ارتفعت بالفعل من حضن الألم والتعب، فلماذا يقول أحد إن عمل الجوارح مستثنى من وظائف الروح؟ لا ريب أن هذا الاستبعاد هو النتيجة العامة للعمل المفرط والفقر المدقع؛ ولكن لا يقال إن الإنسان عندما يعمل باعتدال ونفع، لا يكون هناك إلا عمال سوء وشعراء سوء. إن الذي يستمد متعة نبيلة من الشعور بالشعر هو شاعر حقاً، حتى ولو لم يكتب بيتاً واحداً في حياته كلها.

وكانت أفكاري قد اتخذت هذا المنحى، ولم أكن أدرك أن هذه الثقة في قابلية الإنسان للتربية كانت تقوى في نفسي بمؤثرات خارجية. كنت أسير على حافة حقل كان المزارعون يعدونه للبذر. كانت الساحة شاسعة، مثل تلك التي في لوحة هولباين. وكان المنظر شاسعاً أيضاً، تحيط به خطوط طويلة من اللون الأخضر، وقد احمرّ قليلاً مع اقتراب الخريف، هذا الحقل البني الواسع النشيط الذي تركت فيه الأمطار الأخيرة في بعض الأخاديد خطوطاً من الماء جعلتها الشمس تلمع كخيوط رقيقة من الفضة. كان النهار صافياً ودافئاً، وكانت الأرض التي انفتحت حديثاً بفعل قطع المحاريث تنفث بخاراً خفيفاً. وفي أعلى الحقل كان في أعلى الحقل رجل عجوز، يذكرنا ظهره العريض ووجهه الحاد برسم هولباين، ولكن ثيابه لم تكن تخبر عن فقره، كان يدفع في وقار" أراو" العتيق[13] الذي يجره ثوران هادئان، بمعاطف صفراء شاحبة، وهما من بطاركة البراري الحقيقيين، كانا طويلين ونحيفين قليلاً، بقرون طويلة مطوية، مثل أولئك العمال القدامى الذين أصبحوا من طول التجربة إخوة كما يسمون في الريف، والذين يرفضون العمل مع رفيق جديد ويتركون أنفسهم يموتون من الحزن. الناس غير المطلعين على الريف

[13] كلمة بيريشون للمحراث. "من الشكل القديم"، لأن المحراث في بيري كان لا يزال محراثاً بلا عجلات، على غرار المحراث الذي كان يستخدمه الرومان.

يرفضون الصداقة بين الثور ورفيقه في الفريق على أنها خرافة. فليأتوا ويروا في مؤخرة الإسطبل حيواناً مسكيناً هزيلاً منهكاً يضرب جناحيه الهزيلين بذيله الذي لا يهدأ، وينفخ بخوف وازدراء في الطعام المقدم إليه، وعيناه دائماً متجهتان نحو الباب، وينبش بقدمه في المكان الخالي بجانبه، ويشم النير والسلاسل التي لبسها رفيقه، والاتصال به باستمرار مع الخوار البائس سيقول الراعي: "إنه ثور ضائع؛ لقد مات أخوه، وهذا الثور لن يعمل بعد الآن. يجب أن نكون قادرين على تسمينه لنذبحه ؛ لكنه لن يأكل، وسرعان ما سيموت جوعًا. كان الحراث العجوز يعمل ببطء، في صمت، دون أن يضيع أي جهد. ولم يكن فريقه المطيع في عجلة من أمره أكثر منه؛ ولكن بفضل استمرارية العمل غير المشتت وبذل القوة المجهدة والمستمرة، كان ثلمه يحفر بسرعة تعادل سرعة ثلم ابنه الذي كان يقود أربعة ثيران أقل منه قوة، على مسافة بعيدة، في عرق أقوى[14] وأشد تحجراً. ولكن ما لفت انتباهي بعد ذلك كان حقاً منظراً جميلاً وموضوعاً نبيلاً لرسام. ففي الطرف الآخر من السهل المحروث، كان هناك شاب حسن المظهر يقود فريقاً رائعاً: أربعة أزواج من الحيوانات الصغيرة ذات المعاطف الداكنة التي يختلط فيها

[14] ثقيلة ومقاومة وصعبة الحرث.

السواد بالسواد والظبي بانعكاسات نارية، مع هذه الرؤوس القصيرة والمجعد، ولا تزال تفوح منه رائحة الثيران الوحشية، وتلك العيون الكبيرة الشرسة، وتلك الحركات المفاجئة، وذلك العمل العصبي المتشنج الذي لا يزال يهيج من النير والوخز ولا يطيع الهيمنة المفروضة حديثاً إلا برعشة من الغضب. هذا ما نسميه الثيران المربوطة حديثاً. كان على الرجل المسؤول عنها أن ينظف منطقة كانت متروكة من قبل للمرعى ومليئة بجذوع الأشجار العتيقة، وهي مهمة رياضية لا تكاد تكفيها طاقته وشبابه وحيواناته الثمانية التي لم تروض بعد. كان طفل في السادسة أو السابعة من عمره، وسيمًا كالملاك، يغطي كتفيه جلد حمل فوق ثوبه الذي جعله يبدو مثل القديس يوحنا المعمدان الصغير لرسامي عصر النهضة، يسير في الثلم الموازي للمحراث ويوخز جوانب الثيران بحربة طويلة وخفيفة مسلحة بسِنان غير حاد. ارتجفت الحيوانات المتكبرة تحت يد الطفل الصغير، وأخذت تصرّ النير والأشرطة المربوطة في جباهها وهي تهز المحراث بعنف. وعندما أوقف جذر من جذور المحراث، صرخ الحراث بصوت قوي، منادياً كل حيوان باسمه، ولكن لتهدئة النفوس أكثر مما كان يهيجها، لأن الثيران التي أغضبتها هذه المقاومة المفاجئة قفزت إلى أعلى، وغرست في الأرض بأقدامها العريضة

المشقوقة، وكادت أن تلقي بنفسها جانباً وهي تحمل الأرياح عبر الحقول، لولا أن الشاب كان قد حافظ بصوته ومهمازه، على الأربعة الأولى، بينما كان الطفل يحكم الأربعة الأخرى. وكان الرجل المسكين يصرخ هو الآخر بصوت أراد أن يجعله فظيعاً، ولكنه ظل لطيفاً كوجهه الملائكي. كل هذا كان جميلاً في قوته ورشاقته: كان المنظر الطبيعي والرجل والطفل والثيران تحت النير؛ وعلى الرغم من هذا الصراع القوي الذي هزمت فيه الأرض، كان هناك شعور بالوداعة والهدوء العميق يخيم على كل شيء. وعندما كان يتم تخطي العقبة وتستأنف العربة سيرها المستوي المهيب، كان الحراث الذي لم يكن عنفه المفتعل إلا تمريناً للقوة واستنفاداً للنشاط، يستعيد فجأة هدوء النفوس البسيطة ويلقي نظرة الرضا الأبوي على طفله الذي كان يلتفت إليه مبتسماً. ثم يصدح صوت هذا الأب الشاب من أبناء العائلة بالأغنية المهيبة الحزينة، تلك الأغنية المهيبة التي تتناقلها التقاليد القديمة في البلاد، لا لجميع الحراثين دون تمييز، بل لأكثرهم خبرة في فن إثارة حماسة الثيران العاملة و إدامتها. إن هذه الأغنية التي ربما اعتبر أصلها مقدساً، والتي لا بد أن تأثيرات غامضة كانت تعزى إليها في الماضي، لا تزال مشهورة حتى اليوم بفضيلة الحفاظ على شجاعة هذه الحيوانات وتهدئة سخطها وتسكين

ضجرها من تعبها الطويل. ولا يكفي أن تعرف كيف تسوقها جيداً بحراثة ثلم مستقيم تماماً، أو أن تخفف من أعبائها برفع الحديد أو الضغط عليه في الأرض: فأنت لست حراثاً بارعاً إذا لم تعرف كيف تغني للثيران، وهذا علم قائم بذاته يتطلب ذوقاً خاصاً ووسائل معينة. هذه الأغنية، في الحقيقة، ليست أكثر من نوع من الترتيل الذي يقطع ويستأنف حسب الرغبة. كما أن شكلها غير المنتظم ونغماتها الخاطئة وفقاً لقواعد الفن الموسيقي يجعلها غير قابلة للترجمة. لكنها مع ذلك أغنية جميلة، لدرجة أنها ملائمة جداً لطبيعة العمل الذي تصاحبه، ولخطى الثور، ولهدوء الأماكن الريفية، ولبساطة الرجال الذين يغنونها، بحيث لا يمكن لأي عبقري غريب عن عمل الأرض أن يخترعها، ولا يمكن لأي مغن غير حراث جيد من هذه المنطقة أن يرددها. ففي أوقات السنة التي لا يوجد فيها عمل آخر ولا حركة أخرى في الريف غير الحراثة، ترتفع هذه الأغنية الرقيقة جداً والقوية جداً كصوت النسيم الذي يعطي نغمها الخاص شبهاً معيناً. وترتفع النغمة الأخيرة من كل عبارة، التي تتماسك وترتجف بطول ونفس مدهشين، ربع نغمة بينما تتشوه بانتظام. إنه أمر جامح، ولكن سحره لا يوصف، وبمجرد أن تعتاد سماعه لا يمكنك أن تتخيل أن أي أغنية أخرى يمكن أن تغنى في مثل هذه الأوقات وفي مثل

هذه الأماكن دون أن تخل بالانسجام. وهكذا حدث أن كانت أمام عيني لوحة تتناقض مع لوحة هولباين رغم تشابه المشهدين. فبدلاً من رجل عجوز حزين كان هناك رجل شاب لائق بدنياً؛ وبدلاً من فريق من الخيول الهزيلة المنهكة كان هناك رباعي مزدوج من الثيران القوية المتقدة؛ وبدلاً من الموت كان هناك طفل جميل؛ وبدلاً من صورة اليأس وفكرة الدمار كان هناك مشهد من الطاقة وفكرة السعادة.

عندئذٍ عادت إلى ذهني الرباعية الفرنسية: بعرق جبينك، إلخ، ورباعية فيرجيل: يا حظوظ. / أغريكولاس لفيرجيل[15]، وعندما رأيت هذين الزوجين الجميلين، الرجل والطفل، يقومان في مثل هذه الظروف الشعرية وبهذه الرشاقة الممزوجة بالقوة، بعمل مليء بالعظمة والوقار، شعرت بشفقة عميقة ممزوجة بالاحترام اللاإرادي. هنيئاً للحراث، نعم لا شك أني كنت سأكون سعيداً مكانه لو أن ذراعي التي أصبحت فجأة قوية، وصدري الذي أصبح قوياً يستطيعان هكذا أن يلقحا الطبيعة ويغنياها دون أن ترى عيناي ذلك. وفوق هذا كله، دون أن يتوقف قلبي عن الاتصال بالشعور الإلهي الذي كان يشرف على هذا الخلق الخالد السامي. ولكن، للأسف، لم يفهم هذا الإنسان

[15] (فيرجيل، الجورجيون، 9-458 ,II). اقتبست جورج ساند ذات مرة "الكلمة الحزينة والعذبة" لفيرجيل: "يا سعادة رجل الحقول، لو عرف سعادته".

سر الجمال أبداً، ولن يفهمه هذا الطفل أبداً! ومعاذ الله أن أصدق أنهم لا يتفوقون على الحيوانات التي يهيمنون عليها، وأنهم لا يملكون في بعض الأحيان نوعاً من الوحي النشوة التي تسحر تعبهم وتخدّر همومهم! إنني أرى على جباههم الشريفة ختم الرب، لأنهم ولدوا ملوك الأرض أفضل بكثير من أولئك الذين يملكونها لأنهم دفعوا ثمنها. والدليل على أنهم يشعرون بذلك هو أنهم لا يتحركون بلا عقاب، وأنهم يحبون هذه الأرض التي سقاها عرقهم، وأن الفلاح الحقيقي يموت من الحنين تحت سرج الجندي بعيداً عن الحقل الذي ولد فيه. ولكن هذا الرجل تنقصه بعض اللذائذ التي أمتلكها، اللذائذ غير المادية التي من شأنها أن تكون من حقه، وهو العامل في المعبد الواسع[16] الذي لا يتسع له إلا السماء. إنه يفتقر إلى معرفة مشاعره. إن الذين حكموا عليه بالعبودية من بطن أمه، لم يستطيعوا أن يحرموه من أحلام اليقظة، وحرموه من التفكير، بل حرموه من التفكر.

حسناً، كما هو، ناقصاً ومحكوماً عليه بالطفولة الأبدية، بل هو أجمل من شخص خنق العلم شعوره. فلا ترتفعوا فوقه يا من تظنون أنفسكم مكلّفين بالحق الشرعي الذي لا يجوز أن يُستعصى على أحد أن يأمره، لأن هذا الخطأ

[16] هذا هو "معبد الطبيعة"، وهو تعبير مكرّس في الشعر الرومانسي.

الفظيع الذي تجدون أنفسكم فيه دليل على أن عقولكم قد قتلت قلوبكم، وأنكم أكثر الناس نقصاً وعمىً ... إنني أحب بساطة روحه أكثر من بساطة روحك الكاذبة؛ ولو كان لي أن أروي قصة حياته لسرني أن أبرز جوانبها اللطيفة المؤثرة أكثر مما سررت أنت في تصوير محاسنها. الدناءة التي يمكن أن تدفعه إليها قسوة وازدراء تعاليمك الاجتماعية. كنت أعرف هذا الشاب وهذا الطفل الجميل، كنت أعرف قصتهما، لأن لهما قصة، ولكل إنسان قصته، وكل إنسان يمكن أن يهتم بقصة حياته الخاصة إذا فهمها ... وعلى الرغم من أنه كان فلاحاً وحرّاثاً بسيطاً، إلا أن جيرمان كان مدركاً لواجباته وعواطفه. وقد أخبرني بكل شيء عنهما بوضوح وسذاجة، وكنت أستمع إليه باهتمام. وعندما راقبته وهو يحرث لفترة طويلة بما فيه الكفاية، تساءلت لماذا لا ينبغي أن تدون قصته مع أنها كانت بسيطة ومستقيمة وغير مزخرفة مثل الثلم الذي شقّه بمحراثه. في العام القادم، سيُملأ ذلك الثلم ويُغطى بثلم جديد. هكذا تنطبع علامة معظم البشر في ميدان الإنسانية وتختفي. يمحوها قليل من التراب، وتتبع الأخاديد التي حفرناها بعضها بعضًا مثل القبور في المقبرة. ألا يساوي ثلم الحراثة من العاطلين، الذي له مع ذلك اسم، اسم سيبقى، إذا ما أحدث، ببعض التفرد أو العبث، ضجة قليلة في العالم؟ حسنًا،

دعونا إذن، إذا استطعنا، ننتزع من فراغ النسيان ثلم جيرمان، الحراث الجيد. إنه لن يعرف شيئاً عن ذلك ولن يقلق كثيراً؛ ولكنني سأكون قد استمتعت بإغرائه.

3

الأب موريس

قال له والد زوجته، "الأب موريس،" ذات يوم: - جيرمان، يجب أن تقرر أن تتخذ زوجة مرة أخرى. لقد كنت أرمل ابنتي منذ سنتين تقريباً، وابنتك الكبرى في السابعة من عمرها. أنت تقترب من الثلاثين يا ولدي، وأنت تعلم أنه بعد هذا السن، في بلادنا، يعتبر الرجل كبيرًا جدًا على الزواج. لديك ثلاثة أطفال جميلين، وحتى الآن لم يحرجونا. لقد اعتنت زوجتي وزوجة ابني بهم قدر المستطاع، وأحببتهم كما ينبغي. لقد شارف بيير الصغير على أن يكبر؛ وهو بالفعل يرعى الثيران بشكل جيد؛ وهو حكيم بما فيه الكفاية ليحافظ على الحيوانات في المرج، وقوي بما فيه الكفاية ليقود الخيول إلى الماء. إذن، ليس هذا هو الذي يزعجنا؛ ولكن الآخران اللذان نحبهما، والله يعلم، البريئان المسكينان! يسببان لنا الكثير من المتاعب هذا العام. اقتربت زوجة ابني من أن تضع مولودا ولا يزال لديها طفل صغير بين يديها. عندما يأتي المولود الذي ننتظره لن تكون قادرة على الاعتناء بصغيرك سولانج وخاصة سيلفان

الذي لم يبلغ الرابعة من عمره ولا يرتاح كثيرًا لا ليلًا ولا نهارًا. إنه ذو دم ذكي مثلك: سيكون عاملاً جيداً، ولكنه طفل فظيع، وسيدتي العجوز لا تستطيع أن تجري بسرعة كافية للإمساك به عندما يركض إلى الحفرة، أو عندما يرمي بنفسه تحت أقدام الحيوانات. وبعد ذلك، مع هذا الطفل الآخر الذي ستلده زوجة ابني هذه، فإن طفلها الثاني قبل الأخير سيقع في حضن زوجتي لمدة عام على الأقل. لذا فإن أطفالك يقلقوننا ويثقلوننا. نحن لا نحب أن نرى أطفالاً لا نعتني بهم بشكل جيد، وعندما نفكر في الحوادث التي يمكن أن تحدث لهم إذا لم يتم الاعتناء بهم بشكل صحيح، لا يمكننا أن نرتاح. لذلك أنت بحاجة إلى زوجة أخرى وأنا بحاجة إلى زوجة ابن أخرى. فكر في الأمر يا ولدي. لقد حذرتك بالفعل عدة مرات.

- حسناً، يا أبي، أجاب الصهر: "حسناً، يا أبي، إذا كنت تريد ذلك تماماً، فعليك أن ترضى. ولكنني لا أريد أن أخفي عنك أن ذلك سيكون مؤلماً جداً بالنسبة لي، وأنني لا أريده أكثر مما أريد أن أغرق نفسي. أنت تعرف من تخسر ولا تعرف من تجد. لقد كانت لي امرأة صالحة، امرأة جميلة، رقيقة، شجاعة، بارّة بأبيها وأمها، بارّة بزوجها، بارّة بأولادها، بارّة في العمل، في الحقل كما في البيت، ماهرة في العمل، بارّة في كل شيء في الحقيقة؛

وعندما وهبتني إياها، عندما أخذتها، لم يكن من شروطنا أن أنساها إذا ما حالفني سوء الحظ أن أفقدها.

- أنا أعلم أنك أحببت ابنتي، وأنك أسعدتها، وأنك لو استطعت أن تسعدها بالموت لأخذت مكانها لكانت كاثرين حية الآن وأنت في المقبرة. لقد استحقت أن تكون محبوبة منك إلى هذا الحد، وإذا كنت لا تعزي نفسك بها، فنحن أيضاً لا نعزي أنفسنا بها. ولكنني لا أتحدث إليكم عن نسيانها. لقد شاءت إرادة الرب أن ترحل عنا، ولن يمر يوم دون أن نعلمها بصلواتنا وأفكارنا وأقوالنا وأفعالنا أننا نحترم ذكراها وأننا غاضبون[17] لرحيلها. ولو استطاعت أن تكلمكم من العالم الآخر وتبلغكم وصيتها لأمرتكم بالبحث عن أم لأيتامها الصغار. لذا عليك أن تجد امرأة جديرة بأن تحل محلها. لن يكون الأمر سهلاً؛ ولكنه ليس مستحيلاً؛ وعندما نجدها لك ستحبها كما أحببت ابنتي، لأنك رجل أمين، وستكون ممتناً لها لأنها أسدت إلينا معروفاً وأحببت أطفالك.

- قال جيرمان: "لا بأس يا أبت موريس، سأفعل مشيئتك كما كنت أفعل دائماً.

[17] بائس، منزعج، منزعج، منكوب (المعنى الكلاسيكي، موجود في موليير، على سبيل المثال).

- إن من الإنصاف لك يا بني أن تصغي دائماً إلى الصداقة والأسباب الحسنة رب أسرتك دعنا نعمل معاً لاختيار زوجتك الجديدة. أولا وقبل كل شيء، لا أعتقد أنه يجب أن تأخذ امرأة شابة. فهذا ليس ما تحتاجه. فالشباب خفيف؛ وبما أن تربية ثلاثة أطفال عبء ثقيل خاصة عندما يكونون من فراش آخر، فأنت بحاجة إلى نفس طيبة حكيمة جداً ولطيفة جداً وراغبة جداً في العمل. إذا لم تكن زوجتك في مثل عمرك، فلن يكون لديها من العقل ما يكفي لقبول مثل هذا الواجب. ستعتقد أنك كبير جداً في السن وأطفالك صغار جداً. ستشتكي وسيعاني أطفالك. - هذا بالضبط ما يقلقني". ماذا لو تعرض هؤلاء الصغار المساكين لسوء المعاملة، والكراهية، والضرب؟

- لا سمح الله!" قال الرجل العجوز، ولكن النساء السيئات أكثر ندرة في بلادنا من الصالحات، وعليك أن تكون مجنوناً حتى لا تضع يدك على المرأة المناسبة.

- هذا صحيح يا أبي: هناك بعض الفتيات الصالحات في قريتنا. هناك لويز، سيلفين، كلودي، مارغريت... حسناً، من تريد؟

- هوّن عليك يا بني، هون عليك، كل هؤلاء الفتيات صغيرات جداً أو فقيرات جداً... أو جميلات جداً؛ لأنك في النهاية يجب أن تفكر في ذلك أيضاً يا بني. فالمرأة الجميلة ليست دائماً مرتبة كغيرها.

- "قال جيرمان وهو قلق بعض الشيء: "أتريدني إذن أن آخذ امرأة قبيحة؟

- لا، ليست قبيحة، لأن تلك المرأة ستنجب لك أطفالاً آخرين، وليس هناك شيء محزن أكثر من أن يكون لك أطفال قبيحون ومرضى وغير أصحاء. ولكن امرأة لا تزال طازجة وبصحة جيدة وليست جميلة ولا قبيحة، ستكون مناسبة لك.

- قال جرمان مبتسماً بحزن: أرى أن الحصول عليها بالطريقة التي تريدها يجب أن يكون مقصوداً: خصوصاً وأنك لا تريدها فقيرة، وليس من السهل الحصول على امرأة غنية ولا سيما بالنسبة لأرمل.

- وماذا لو كانت هي نفسها أرملة يا جيرمان؟ أرملة بلا أولاد مع ثروة جيدة؟

- لا أعرف أي منها في أبرشيتنا في الوقت الحالي.

- ولا أنا، ولكن هناك البعض في أماكن أخرى.

- لديك شخص ما في ذهنك يا أبتاه فقل ذلك على الفور.

4

جيرمان الحرّاث النّاعم

- نعم، لدي شخص في ذهني"، أجاب الأب موريس. إنها أرملة ليونار، أرملة غيران التي تعيش في فورش.

- أنا لا أعرف المرأة أو المكان"، أجاب جيرمان مستسلماً ولكن حزنه يزداد.

- اسمها كاثرين، مثل زوجتك الراحلة.

- كاثرين؟ نعم، سيسعدني أن أقول هذا الاسم: كاثرين! ومع ذلك فإنني إذا لم أستطع أن أحبها بقدر ما أحب الأخرى، فإن ذلك سيجعلني أشعر بحزن أكبر، وسيذكرني بها أكثر فأكثر.

- إنني أقول لك إنك ستحبها: إنها فتاة طيبة، وامرأة طيبة القلب؛ ولم أرها منذ زمن طويل، ولم تكن فتاة قبيحة في الثانية والأربعين؛ ولكنها لم تعد شابة، إنها في الثانية والثلاثين. وهي من أسرة طيبة، وكلها من أهل الخير، ولديها أرض تساوي ثمانية أو عشرة آلاف فرنك من الأراضي، وهي مستعدة أن تبيعها بسرور لتشتري أكثر منها في المكان الذي ستستقر فيه؛ لأنها تفكر

أيضاً في الزواج مرة أخرى، وأنا أعلم أنها لن تجد في موقفك سوءاً إذا كانت شخصيتك تناسبها.

- هل رتبت كل هذا بالفعل؟

- نعم، باستثناء ما تظنانه أنتما الاثنان؛ وهذا ما يجب أن نسأله لبعضنا البعض عندما نتعرف على بعضنا البعض. إن والد هذه المرأة قريب لي بعض الشيء، وقد كان صديقاً عظيماً لي. هل تعرفين الأب ليونارد جيداً؟ - أجل، لقد رأيته يتحدث إليك في المعارض، وفي المعرض الأخير تناولتما الغداء معاً؛ فهل هذا ما كان يتحدث إليك عنه بهذا الإسهاب؟

- لا شك؛ لقد شاهدك وأنت تبيع ماشيتك فرأى أنك تبلي بلاء حسناً، وأنك فتى حسن المظهر، وأنك تبدو نشيطاً ومطلعاً؛ وعندما أخبرته بكل شيء عنك وعن حسن تصرفك معنا خلال السنوات الثماني والأربعين التي عشنا فيها وعملنا معاً، دون أن يصدر منك كلمة حزن[18] أو غضب، خطر له أن تتزوج ابنته، وأعترف بأن هذا الأمر يناسبني أيضًا، نظرًا للسمعة الطيبة التي تتمتع بها، ولأمانة عائلتها ولحسن تجارتهم التي أعرفها.

- أرى، أيها الأب موريس، بأنك تهتم قليلا بالأعمال الجيدة.

[18] مزاج متعكر. نفس المعنى في التعبير الذي لا يزال مستخدماً حتى اليوم: avoir un caractère chagrin (مزاج سيئ).

- لا شك في ذلك ألست حريصاً أيضاً؟

- أنا حريص إذا أحببت، على إرضائك؛ ولكنك تعلم أنني، من ناحيتي، لا أهتم أبداً بما يأتي أو لا يأتي لي من أرباحنا. أنا لا أفهم كيف أقسم الأشياء، ورأسي لا يصلح لهذا النوع من الأشياء. أنا أعرف الأرض وأعرف الثيران والخيول واللجام والبذور، والدرس[19]، والعلف. أما الأغنام والكروم والبساتين والأرباح الصغيرة والفلاحة الجيدة، فأنت تعلم أن هذا شأن ابنك ولا أتدخل فيه كثيرًا. أما المال، فذاكرتي قصيرة، وأنا أفضل أن أتخلى عنه كله على أن أجادل في أمورك وأموري. سأخشى أن أخطئ وأطالب بما ليس لي، ولو لم تكن الأمور بسيطة وواضحة لما استطعت أن أتبين أموري.

- هذا أمر سيئ جداً يا بني، ولهذا السبب أود أن تكون لك امرأة قوية تحل مكاني عندما أرحل. إنك لم ترغب أبداً في أن ترى حساباتنا بوضوح، وقد يؤدي ذلك إلى سوء تفاهم بينك وبين ابني عندما لا يكون لكما بعد الآن من يوافقك على ما هو مستحق لكل منكما.

- أتمنى أن تعيش طويلاً أيها الأب موريس! ولكن لا تقلق بشأن ما، لن أتشاجر أبداً مع ابنك. إنني أثق بجاك بقدر ثقتك أنت، وبما أنني لا أملك

[19] 1 كلمة بيري تعني الدَّرْس، وهو ضرب القمح لفصل الحبوب عن السنابل.

أملاكاً خاصة بي، وبما أن كل ما قد يأتي إليّ من ابنتك هو من نصيب أولادنا، فإنني أستطيع أن أرتاح وكذلك أنت، فجاك لا يريد أن يحرم أولاد أخته من أجل أولاده، لأنه يحبهم كما يحب الآخرين.

- أنت محق في ذلك يا "جيرمان". "جاك" ابن بار وأخ صالح ورجل يحب الحقيقة. ولكن جاك قد يموت قبلكم، قبل أن يتربى أولادكم، وعليكم أن تتذكروا دائماً، في العائلة، ألا تتركوا القاصرين بدون قائد ينصحهم ويسوي خلافاتهم. وإلا سيتدخل المحامون ويتشاجرون معهم ويجعلونهم يأكلون كل شيء في المحكمة. لذلك يجب ألا نفكر في وضع شخص آخر في بيتنا، رجلاً كان أو امرأة، دون أن نفكر في أن هذا الشخص قد يضطر يومًا ما إلى إدارة شؤون ثلاثين أو نحو ذلك من الأبناء والأحفاد والأصهار والبنات... أنت لا تعرف كم يمكن أن تكبر العائلة، وعندما تمتلئ خلية النحل وتضطر إلى السرب، يفكر كل واحد منهم في أخذ العسل معه. عندما اخترتك صهرًا لي، على الرغم من أن ابنتي كانت غنية وأنت فقير، لم أعاتبها على اختياري لك. لقد رأيتك عاملاً صالحاً، وعرفت أن أفضل ثروة لأهل الريف أمثالنا هي زوج من السواعد وقلب مثل قلبك. عندما يجلب الرجل ذلك للعائلة، فإنه يجلب ما يكفي. أما المرأة فالأمر مختلف، فعملها في المنزل جيد للمحافظة

على المال وليس للاكتساب. بالإضافة إلى ذلك، بما أنك الآن أب وتبحث عن زوجة، عليك أن تضع في اعتبارك أن أولادك الجدد، الذين لا يملكون أي حق في ميراث من زواجك الأول، سيكونون معدمين إذا توفيت، إلا إذا كان لزوجتك بعض الممتلكات الخاصة بها. إلى جانب ذلك، فإن الأطفال الذين ستضيفهم إلى مستعمرتنا سيكلفون شيئًا لإطعامهم. لو كان الأمر يقع على عاتقنا وحدنا، فسنطعمهم بالتأكيد، وبدون تذمر؛ ولكن رفاهية الجميع ستتضاءل وسيكون للأطفال الأوائل نصيبهم من المشقة. عندما تزداد العائلات بشكل مفرط بدون الخير يزيد في الخير، والبؤس يزيد في الشقاء، مهما بذل المرء من شجاعة هذه هي ملاحظاتي يا جيرمان، فزنها يا جيرمان، وحاول أن تجعل نفسك مقبولاً لدى الأرملة غيران؛ لأن حسن تصرفها ومالها سيجلب لها العون في الحاضر والسلام في المستقبل.

- هذا كل شيء يا أبتاه سأحاول أن أرضيها وأجعلها ترضيني.

- ولكي تفعل ذلك، عليك أن تراها وتذهب لتجدها.

- إلى مكانها؟ في "فوركس"؟ هذا طريق طويل من هنا، أليس كذلك؟ وليس لدينا الكثير من الوقت للركض في هذا الموسم.

- حين يكون زواجاً عن حب، يجب أن تتوقع أن تضيع الوقت؛ ولكن حين يكون زواجاً عن عقل بين شخصين لا نزوات لهما ويعرفان ما يريدان، فسرعان ما يتقرر الأمر. إنه غدًا السبت؛ ستجعل يومك في الحراثة قصيرًا بعض الشيء، وستغادر في ساعتين بعد العشاء[20]؛ وستكون في "فورش" عند حلول الظلام؛ فالقمر كبير في هذا الوقت، والطرق جيدة، ولا تزيد المسافة عن ثلاثة فراسخ من البلاد. وهي قريبة من "ماغنييه". إلى جانب ذلك، يمكنك أن تأخذ الفرس.

- أود فقط أن أذهب مشياً على الأقدام، في هذا الطقس البارد.

- أجل، لكن الفرس جميلة، والمتظاهر الذي يصل على صهوة جواده يبدو أجمل.

ــ ارتدِ ملابسك الجديدة وخذ معك هدية لطيفة من اللعبة إلى الأب ليونارد. ستأتي بالنيابة عني وتتحدث معه وتقضي يوم الأحد مع ابنته وتعود بالموافقة أو الرفض صباح الاثنين.

- إنه اتفاق"، أجاب جيرمان بهدوء، على الرغم من أنه لم يكن مرتاحًا تمامًا. لطالما عاش جيرمان بحكمة كما يعيش الفلاحون الكادحون. تزوج وهو في

[20] العشاء، حسب الاستعمال القديم، يشير إلى وجبة منتصف النهار، وتسمى الآن الغداء (في فرنسا).

العشرين من عمره، ولم يحب في حياته إلا امرأة واحدة، ومنذ ترمله، وعلى الرغم من أنه كان متهورًا ومرحًا، إلا أنه لم يضحك أو يعبث مع أي امرأة أخرى. لقد كان يحمل في قلبه أسفاً حقيقياً مخلصاً، ولم يكن استسلامه لوالد زوجته دون خوف وحزن؛ ولكن والد زوجته كان دائماً يحكم الأسرة بحكمة، وجرمان الذي كرس نفسه كلياً للعمل المشترك، وبالتالي للشخص الذي يجسده وهو رب الأسرة، لم يفهم جرمان كيف أمكنه أن يتمرد على الأسباب الوجيهة، وعلى مصلحة الجميع.

ومع ذلك، كان حزينًا. وقليلة هي الأيام التي كانت تمر عليه دون أن يحزن على زوجته في الخفاء، وعلى الرغم من أن العزلة بدأت تثقل عليه فقد كان خائفاً من تكوين اتحاد جديد أكثر من حرصه على الهروب من حزنه. وكان يفكر في غموض في أن الحب ربما كان يواسيه بمجيئه ليفاجئه، لأن الحب لا يواسيه بأي طريقة أخرى. إننا لا نجده عندما نبحث عنه؛ إنه يأتينا عندما لا نتوقعه. إن مشروع الزواج البارد الذي كان يعرضه عليه الأب موريس، هذه الخطيبة المجهولة، بل لعل كل ما قيل له عن عقلها وفضيلتها كان يعطيه غذاء للتفكير. فذهب بعيداً وهو يفكر، كما يفكر الرجال عندما لا يكون لديهم ما يكفي من الأفكار ليحاربوا بعضهم بعضاً، أي لا يصوغ لنفسه أسباباً جيدة

للمقاومة والأنانية، بل يعاني من ألم ممل ولا يحارب شراً كان لابد من قبوله. غير أن الأب موريس كان قد عاد إلى المزرعة، بينما كان جيرمان بين غروب الشمس وحلول الليل يقضي الساعة الأخيرة من النهار في سد الثغرات التي أحدثتها الأغنام في حافة الحقل المجاور للمباني. كان يسحب سيقان الأشواك ويدعمها بكتل من التراب، بينما كانت طيور القرقف تثرثر في الأدغال القريبة وتبدو وكأنها تصيح به كي يسرع في عمله، إذ كان الفضول يتملكها للقدوم وتفحص عمله بمجرد مغادرته.

5

لاغيليت

وجد الأب موريس جارة عجوز في المنزل جاءت لتتحدث مع زوجته وهي تبحث عن جمر لإشعال النار. كانت الأم غيليت تعيش في كوخ فقير جداً على بعد طلقتين من المزرعة. لكنها كانت امرأة ذات نظام و إرادة. كان منزلها الفقير نظيفاً ومعتنى به جيداً، وكانت ملابسها المرقعة بعناية تدل على احترامها لنفسها في وسط الضيق.

- قال الرجل العجوز: "لقد جئتِ لتحضري نار المساء يا أمي غيليت. هل تريدين أي شيء آخر؟

- لا يا أب موريس"، أجابت: "لا شيء في الوقت الحالي. أنا لست شحاذة، كما تعلم، وأنا لا أسيء استخدام عطف أصدقائي.

- هذه هي الحقيقة؛ لذا فإن أصدقاءك مستعدون دائماً لتقديم معروف لك.

- لقد كنت أتحدث إلى زوجتك وسألتها عما إذا كان جيرمان قد قرر أخيراً أن يتزوج مرة أخرى.

- فأجاب الأب موريس: "أنت لست شخصاً ثرثاراً"، "يمكن للمرء أن يتكلم أمامك دون أن يخشى أن يكلّمه أحد: لذلك سأخبر زوجتي وأخبرك أن جيرمان قد حسم أمره وسيغادر غداً إلى ضيعة فورش.

- هذا أمر جيد!" أضاف الأب موريس قائلاً: "هذا الطفل المسكين! فليساعده الله في العثور على امرأة طيبة وشجاعة مثله!

موريس، بماذا يمكنك أن تلزمني؟

- نريد أن نلزمك.

- أود أن يتكبد جيرمان عناء اصطحاب ابنتي معه.

- إلى أين إذن؟ إلى فورش؟

- لا، ليس إلى "فورش"، بل إلى "أورمو"، حيث ستبقى هناك لبقية العام.

- "ماذا!" قالت الأم موريس، "هل ستفارق ابنتك؟

- عليها أن تتكيف[21] وتكسب شيئاً ما. إنه لأمر محزن للغاية بالنسبة لي ولها أيضًا، يا لها من مسكينة! لم يكن بوسعنا أن نقرر فراق بعضنا البعض في عيد منتصف الصيف؛ ولكن عيد القديس مارتن[22] قد اقترب الآن، وقد

[21] قيد الاستخدام.

[22] في عيد القديس يوحنا (24 يونيو) وعيد القديس مارتن (11 نوفمبر)، كانت تقام معارض كبيرة في الريف، حيث يتقدم الشباب والشابات لتأجير أنفسهم كخدم.

حصلت على عمل جيد كراعية في مزارع أورمو. كان المزارع يمر من هنا منذ أيام في طريق عودته من المعرض. ورأى صغيرتي ماري ترعى أغنامها الثلاثة في المشاع.[23] "أنت لست دائما مشغولة وثلاثة أغنام لراعية[24]ليس بالكثير. هل تريدين أن تحتفظي بمائة خروف؟ سآخذك. لقد مرضت الراعية عندنا، وهي عائدة إلى أهلها، و إذا أردت أن تكوني معنا أسبوعًا فستحصلين على خمسين فرنكًا لبقية السنة حتى منتصف الصيف. فرفضت الطفلة، ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها من التفكير في الأمر وأخبرتني بذلك عندما عادت إلى البيت في المساء ورأتني حزينة محرجة من اجتياز الشتاء الذي سيكون شاقاً وطويلاً، لأن طيور الكركي والإوز البري قد طارت في هذا العام في الجو قبل شهر من المعتاد. بكينا كلانا، ولكن في النهاية عادت إلينا شجاعتنا. قلنا لأنفسنا إننا لا نستطيع أن نبقى معاً، إذ لا يكاد يكفي شخص واحد للعيش في قطعة الأرض التي نملكها؛ وبما أن ماري قد بلغت من العمر ما يكفي (وهي الآن في السادسة عشرة من عمرها) فعليها أن تفعل ما يفعله الآخرون، وأن تكسب قوت يومها وتساعد أمها المسكينة.

[23] 3 أرض تابعة للبلدية حيث يمكن للفلاحين الفقراء أن يرعوا فيها حيوانهم.

[24] الراعية وقد وضع جورج ساند خطاً تحت الكلمة للإشارة إلى أنها جزء من لهجة البريشون.

- قال الحراث العجوز: ــ يا أماه غيليت: لو كان كل ما تحتاجين إليه خمسين فرنكاً تواسيك عن أحزانك وتغنيكِ عن إرسال طفلك بعيداً لجعلتك تجدينها حقاً، مع أن الخمسين فرنكاً لأمثالنا بدأت تثقل عليك. ولكن عليك في كل شيء أن تستشيري العقل كما تستشيري الصداقة، فإذا نجوت من شقاء هذا الشتاء، فلن تنجي من الشقاء الآتي، وكلما تأخرت ابنتك في اتخاذ قرارها كلما كان من الصعب عليك وعليها أن تتركا بعضكما بعضاً. إن ماري الصغيرة أصبحت كبيرة وقوية، وليس لديها ما تشغل به نفسها في المنزل. قد تعتاد على الكسل...

- أوه، أنا لست خائفة من ذلك". إن ماري شجاعة بقدر ما يمكن أن تكون فتاة غنية ذات وظيفة كبيرة. إنها لا تجلس مكتوفة اليدين للحظة، وعندما لا يكون لدينا أي عمل تقوم به، تقوم بتنظيف أثاثنا المسكين، وتجعله صافياً كالمرآة. إنها طفلة تساوي وزنها ذهباً، وأنا أفضل كثيراً أن تأتي للعيش معك كراعية على أن تذهب بعيداً لتعيش مع أناس لا أعرفهم. لقد كنت ستأخذها في يوم منتصف الصيف، لو كنا قادرين على اتخاذ قرارنا؛ ولكنك الآن قد استأجرت كل قومك، ولن نستطيع التفكير في الأمر إلا في يوم منتصف الصيف من العام القادم.

- أوافق بكل إخلاص، غيليت! سيسعدني ذلك كثيراً. ولكن في هذه الأثناء، ستبلي بلاءً حسناً بتعلم حرفة والتعود على خدمة الآخرين.

- نعم، بلا شك؛ لقد تم اختيارها. لقد طلبها المزارع في "أورمو" هذا الصباح، وقد وافقنا على ذلك، وعليها أن تذهب. ولكن الطفلة المسكينة لا تعرف الطريق، وأنا لا أحب أن أرسلها بعيداً جداً بمفردها. وبما أن زوج ابنتك سيذهب إلى "فورش" غداً، فمن الأفضل أن يأخذها معه. لقد قيل لي أنه بجوار العقار الذي ستذهب إليه، لأنني لم أقم بهذه الرحلة من قبل.

- إنها بجوارها تماماً، وسيأخذها زوج ابنتي. ويمكنه حتى أن يأخذها لركوب الفرس، مما سيغنيها عن حذائها. سيأتي إلى المنزل لتناول العشاء. ها إنه قادم: ـــ قل لي ، جيرمان ، ماري الصغيرة للأم غيليت ستصبح راعية في أورمو ستأخذها على حصانك، أليس كذلك؟

- لا بأس بذلك"، أجاب جيرمان الذي كان قلقاً، لكنه كان مستعداً دائماً لتقديم خدمة لجاره. وفي عالمنا هذا لم يكن ليخطر ببال أم أن تعهد بابنة في السادسة عشرة من عمرها إلى رجل في الثامنة والعشرين؛ لأن جيرمان لم يكن في الحقيقة إلا في الثامنة والعشرين؛ وعلى الرغم من أنه كان، حسب أفكار بلده، عجوزاً من وجهة نظر الزواج، فإنه كان لا يزال أوسم رجل في

المكان. ولم يكن العمل قد أجوفه وأضناه مثل معظم الفلاحين الذين قضوا عشر سنوات من الحراثة على رؤوسهم. لقد كان قوياً بما فيه الكفاية ليحرث عشر سنوات أخرى دون أن يبدو عليه الكبر، وكان يجب أن يكون تحامل السن قوياً جداً على عقل فتاة صغيرة ليمنعها من رؤية أن جيرمان كان يتمتع ببشرة نضرة وعينين مشرقتين زرقاوين كسماء مايو، وفم وردي وأسنان رائعة، وجسم أنيق ليّن كجسم حصان صغير لم يغادر المرج بعد. ولكن العفة في الأخلاق تقليد مقدس في بعض المناطق الريفية البعيدة عن حركة الفساد في المدن الكبيرة، ومن بين جميع عائلات بيلير كانت عائلة موريس مشهورة بالأمانة وخدمة الحق. كان جيرمان ذاهباً للبحث عن زوجة؛ وكانت ماري صغيرة جداً وطفلة فقيرة جداً بحيث لا يستطيع أن يفكر فيها من هذا المنظور، وما لم يكن قاسي القلب ورجل سيئ فمن المستحيل أن يخطر له أن يفكر فيها تفكير مذنب. ولذلك لم يكن الأب موريس قلقاً على الإطلاق من أن يراه يصطحب هذه الفتاة الجميلة على ظهره؛ وكانت لا غيليت تظن أنها تظلمه لو نصحته بأن يحترمها كأخته؛ وصعدت ماري على الفرس وهي تبكي بعد أن قبلت أمها وصديقاتها الصغيرات عشرين مرة. أما جيرمان الذي كان حزيناً من تلقاء نفسه، فقد تعاطف مع حزنها أكثر من تعاطفه مع حزنه،

وانصرف عنها في جو من الجد، بينما كان أهل الحي يلوحون لماري المسكينة بالوداع دون أن يخطر ببالهم أن يصيبها أذى.

6

بيير الصّغير

"لا غريز" أو الرمادية شابة جميلة ونشيطة. وكانت تحمل عبئها المضاعف دون عناء، تطوي أذنيها وتعض على لجامها كالفرس المتحمسة المتباهية. وعندما اجتازت المرج الطويل رأت أمها التي تُدعى "غريز العجوز"، مثلها مثل "غريز الصغيرة"، فصهلت مودعة. وصعدت العجوز جراي إلى السياج وهي تدق أجراسها[25]، وحاولت أن تعدو على حافة المرج لتلحق بابنتها؛ ثم رأتها تهرول بأقصى سرعة فهرولت في اثرها، وظلت تهرول بدورها، متأنية قلقة وأنفها في مهب الريح وفمها مليء بالعشب لدرجة أنها لم تعد تفكر في الأكل.

- قال جيرمان ليصرف ماري الصغيرة عن حزنها: "هذا الحيوان المسكين يعرف دائماً ذريته. هذا يجعلني أعتقد أنني لم أقبل صغيري بيير قبل أن أغادر. الطفل الشقي لم يكن هناك في الليلة الماضية أرادني أن أعده أن

[25] أَو العَنَقُ: رِبَاطٌ تُرْبَطُ بِهِ قَوَائِمُ الخَيْلِ المُطْلَقَةِ لِلرَّعْيِ لِتَمْنَعَهَا مِنَ الجَرْيِ.

آخذه بعيداً، وبكى لمدة ساعة في فراشه. هذا الصباح مرة أخرى، حاول كل شيء لإقناعي. أوه، إنه ذكي جداً ومحبوب! ولكن عندما رأى أن ذلك غير ممكن، غضب وذهب إلى الحقول، ولم أره مرة أخرى طوال اليوم.

- قالت ماري الصغيرة وهي تحاول جاهدة أن تحبس دموعها: "لقد رأيته". كان يركض مع أطفال سولاس باتجاه منطقة التقليم[26]، وقد شككت في أنه كان خارج المنزل منذ فترة طويلة، لأنه كان جائعًا وأكل التوت البري والتوت الأسود. فأعطيته الخبز من وجبتي الخفيفة، فقال لي: "شكرًا لك يا ماري الحلوة: عندما تأتي إلى منزلنا، سأعطيك بعض الفطائر." يا له من طفل لطيف يا جيرمان!

- نعم، إنه كذلك"، قال الحراث، "ولا أعرف ما الذي لن أفعله من أجله! لو لم تكن جدته أكثر تعقلاً مني، لما استطعت أن أقاوم أخذه، عندما رأيته يبكي بشدة لدرجة أن قلبه الصغير المسكين كان متورماً.

- حسناً، لماذا لم تأخذه بعيداً يا جيرمان؟ كان من الصعب أن يحرجك، فهو عاقل جداً عندما تفعل ما يريده!

[26] بدء نمو الخشب المقطوع من جديد

- يبدو أنه كان سيكون أكثر من اللازم في المكان الذي سأذهب إليه. على الأقل كان هذا رأي الأب موريس... ومع ذلك، كنت أعتقد أنه، على العكس، يجب أن نرى كيف تم استقباله، وأن مثل هذا الطفل اللطيف لا يمكن أن يؤخذ إلا بصداقة طيبة... ولكنهم يقولون في المنزل أنه لا ينبغي أن تبدأ بإظهار فواتير المنزل... لا أعرف لماذا أتحدث معك في هذا الأمر يا ماري الصغيرة، أنتِ لا تفهمين شيئاً.

- بلى، أفهم يا جيرمان؛ أنا أعلم أنك ستتزوج؛ لقد أخبرتني أمي بذلك، وحذرتني من أن أذكر ذلك لأحد، سواء في البيت أو في المكان الذي سأذهب إليه، ويمكنك أن تطمئن: لن أقول كلمة واحدة عن ذلك.

- ربما لن أكون مناسباً للمرأة المعنية.

- لنأمل ذلك يا "جيرمان". إذن لماذا لا تناسبها؟

- من يدري؟ لدي ثلاثة أطفال، وهذا كثير بالنسبة لامرأة ليست أمهم!

- هذا صحيح، لكن أطفالك ليسوا مثل الأطفال الآخرين.

- هل هم كذلك؟

- إنهم جميلون كملائكة صغار، وقد ربيتِهم بشكل جيد بحيث لا يمكن أن تقابلي ألطف منهم.

- هناك سيلفان، الذي هو صعب المراس قليلاً.

- إنه صغير جدًا! لا يمكن أن يكون إلا فظيعًا، لكنه بارع جدًا!

- صحيح أن لديه روح! وشجاعة! إنه لا يخاف من الأبقار أو الثيران، ولو تركناه لركب حصاناً مع أخيه الأكبر.

- لو كنت مكانك لأحضرت الأكبر سناً. بالطبع كان ذلك سيجعلك تحبينه على الفور، أن يكون لديك مثل هذا الطفل الجميل!

- نعم، إذا كانت المرأة تحب الأطفال؛ أما إذا لم تكن كذلك!

- هل هناك نساء لا يحببن الأطفال؟

- ليس الكثير، على ما أعتقد؛ ولكن هناك بعضهن، وهذا ما يعذبني.

- إذن أنتِ لا تعرفين هذه المرأة على الإطلاق؟

- لا أعرفها أكثر مما تعرفينها، وأخشى أنني لن أعرفها أكثر بعد أن رأيتها. أنا لست مرتاباً. إنني عندما يقال لي كلام طيب أصدقه: ولكنني أكثر من مرة استطعت أن أتوب عنه، لأن الأقوال ليست أفعالاً.

- يقولون أنها امرأة صالحة جداً.

- من يقول ذلك؟ الأب موريس!

- نعم، حماك.

- هذا جيد: لكنه لا يعرفها أيضاً.

- حسناً، ستراها قريباً، وستنتبه جيداً، وآمل ألا تكون مخطئاً يا جيرمان.

- تفضلي يا ماري الصغيرة، سأكون سعيداً جداً لو أتيتِ إلى المنزل قليلاً قبل أن تذهبي مباشرة إلى " أورمو": أنتِ ذكية وبارعة وتنتبهين لكل شيء. إذا رأيتِ أي شيء يجعلك تفكرين، ستخبرينني بلطف شديد.

- أوه، لا، جيرمان، لن أفعل ذلك، سأكون خائفاً جداً من الوقوع في الخطأ؛ وبالإضافة إلى ذلك، إذا ما قلت كلمة واحدة بخفة ستجعلك تبتعدين عن هذا الزواج، فإن والديك سيغضبان مني، وقد عانيت ما يكفي من الحزن كما هو، دون أن أجلب المزيد من الحزن على زوجتي المسكينة العزيزة. وبينما هما يتحدثان، انحرفت لا جريس وشكت أذنيها، ثم عادت إلى الوراء واقتربت من الشجيرة، حيث بدأ شيء ما بدأت تتعرف عليه قد أخافها في البداية. وألقى جيرمان نظرة خاطفة على الشجيرة فرأى في الخندق تحت الأغصان الكثيفة التي لا تزال غضة من رأس السنديان[27] شيئاً اعتبره حملاً.

- قال: "إنه حيوان ضائع، أو ميت، لأنه لا يتحرك. ربما يبحث عنه شخص ما؛ علينا أن نرى!

[27] شجرة يتم تقليمها بانتظام وتأخذ أغصانها شكل رأس كبير.

- إنه ليس حيواناً"، صاحت ماري الصغيرة: "إنه طفل نائم؛ إنه بيير الصّغير.

- قال جرمان وهو يترجل: انظروا إلى ذلك الوغد الصغير وهو نائم هناك بعيداً عن البيت، وفي حفرة قد يجده فيها ثعبان ما! وأخذ الطفل بين ذراعيه، فابتسم له الطفل وهو يفتح عينيه ويلتف بذراعيه حول عنقه قائلاً: أبي الصغير، ستأخذني معك!

- أوه نعم! نفس الأغنية القديمة! ماذا كنت تفعل هناك يا بيتر الشرير؟

- كنت أنتظر قدوم أبي الصغير". كُنْتُ أَنْظُرُ فِي الطَّرِيقِ، وَكُلَّمَا نَظَرْتُ أَكْثَرَ نَظَرْتُ، وَغَلَبَنِي النَّوْمُ.

- ولو كنت قد مررت دون أن أراك، لبقيت في الخارج طوال الليل، ولكان الذئب قد افترسك!

- أوه، كنت أعرف أنك ستراني!" أجاب بيتي بيير بثقة.

- حسناً، والآن يا بيتر أعطني قبلة وودعني وأسرع بالعودة إلى البيت إذا كنت لا تريد أن نتناول العشاء بدونك.

- إذن فأنت لا تريد أن تصحبني معك!" فهتف الصبي وهو يفرك عينيه ليظهر أنه ينوي البكاء.

- أنت تعلم جيداً أن جده وجدته لا يريدان ذلك"، قال جيرمان وهو يحتمي بسلطة والديه العجوزين، كرجل لا يعتمد على سلطته الخاصة. لكن الطفل لم يسمع شيئًا. وبدأ يبكي قائلاً إنه بما أن والده كان يأخذ ماري الصغيرة، فبإمكانه أن يأخذها أيضاً. واعترضوا بأن عليهم أن يمروا في الغابة الكبيرة، وبأن هناك وحوشاً كثيرة شريرة تأكل الأطفال الصغار، وبأن لا غريز لا تريد أن تحمل ثلاثة أشخاص، كما أعلنت عند رحيلها، وبأنه لا يوجد في البلاد التي سيذهبون إليها أسرة أو عشاء للصغار. ولم تفلح كل هذه الأسباب الممتازة في إقناع بيتي بيير؛ فألقى بنفسه على العشب وتدحرج وهو يصيح بأن أباه الصغير لم يعد يحبه، وأنه إذا لم يأخذه بعيداً فلن يعود إلى البيت طوال النهار أو طوال الليل. كان جيرمان يملك قلب أب رقيقاً حنوناً وضعيفاً كقلب المرأة. فوفاة زوجته، والرعاية التي اضطر أن يوليها لصغاره وحده، وفكرة أن هؤلاء الأطفال المساكين الذين لا أم لهم يحتاجون إلى أن يحبهم كثيراً، كل ذلك ساهم في جعله هكذا، وقد قاوم بشدة وهو يحمر خجلاً من ضعفه ويحاول أن يخفي انزعاجه عن ماري الصغيرة، حتى أن العرق قد تفصد جبينه واحمرت عيناه وهو على استعداد للبكاء أيضاً. وأخيراً، حاول أن يغضب، ولكنه عندما التفت إلى ماري الصغيرة، وكأنه يريد أن يتخذها شاهدة

على صلابة روحه، رأى وجه هذه الفتاة الطيبة مغموراً بالدموع، فغمرته كل شجاعته التي هجرته ولم يستطع أن يكبح جماح نفسه، رغم أنه عاد يوبخ ويهدد مرة أخرى.

- وأخيراً قالت ماري الصغيرة: "أنت حقاً قاسية القلب جداً"، وأنا من ناحيتي لم أستطع أبداً أن أقاوم طفلاً في مثل هذا الحزن الشديد. هيا، جيرمان، خذه بعيداً. إن فرسك معتاد على حمل شخصين وطفل، بدليل أن صهرك وزوجته، وهو أثقل مني بكثير، يذهبان إلى السوق يوم السبت مع ولدهما على ظهر هذا الحيوان الجيد. ويمكنك أن تضعه على ظهر الحصان أمامك، وفضلاً عن ذلك فإني أفضل أن أذهب على قدمي على أن أسبب للصبي أي ألم.

- لا يهم، أجاب جيرمان الذي كان يتحرق شوقاً للاقتناع. "لا غريز" قوية وستحمل اثنين آخرين لو كان هناك متسع على ظهرها. ولكن ماذا سنفعل بهذا الطفل على الطريق؟ سيشعر بالبرد والجوع... ومن سيعتني به الليلة وغداً، ويضعه في الفراش ويغسله ويلبسه ثيابه؟ أنا لا أجرؤ على تكليف امرأة لا أعرفها بهذا النوع من المتاعب، والتي بلا شك ستعتقد أنني أتعامل معها بشكل غير رسمي في البداية.

- صدقني يا "جيرمان"، ستتعرف عليها مباشرةً من خلال مدى ودها أو مللها، والأكثر من ذلك أنها إذا ما أطفأت بيير، فسأهتم بالأمر. سأذهب إلى منزلها لألبسها ملابسها وسآخذها إلى الحقول غداً. سأقوم بتسليتها طوال اليوم وسأتأكد من حصولها على كل ما تحتاجه.

- وسوف يزعجك يا فتاتي المسكينة! يوم كامل هو وقت طويل!

- بل على العكس، سأستمتع به وسيؤنسني ويقلل من حزني في أول يوم أقضيه في بلد جديد. سأعتقد أنني ما زلت في المنزل. ورأت الطفلة أن ماري الصغيرة قد حسمت أمرها، فتشبثت بتنورتها وتمسكت بها بشدة لدرجة أن تمزيقها كان سيؤلمها. ولما أدرك أن أباه قد استسلم، أخذ يد ماري بيديه الصغيرتين اللتين أسمرتهما الشمس وقبلها وهو يقفز فرحاً ويقفز إلى أعلى وأسفل، ثم جذبها نحو الفرس وهو يقول بنفاذ صبر الأطفال في رغباتهم.

- قالت الفتاة الصغيرة وهي ترفعه بين ذراعيها: (تعال، تعال) ثم قالت: (لنحاول أن نهدئ هذا القلب المسكين الذي يقفز كالعصفور الصغير، و إذا أحسست بالبرد عندما يأتي الليل فقل لي يا بيير سأضمك في عباءتي. أعطي والدك الصغير قبلة واطلب منه أن يسامحك على كونك ولداً سيئاً. قل له أن هذا لن يحدث لك مرة أخرى أبداً، أبداً، هل تسمعني؟

- أجل، أجل، بشرط أن أنفذ وصيته دائماً، ألا توافقني على ذلك؟" قال جيرمان وهو يمسح عيني الصبي بمنديله. ماري، أنت تفسدينه علي! وحقاً، أنتِ فتاة طيبة جداً يا ماري الصغيرة. لا أعرف لماذا لم تنضمي إلينا كراعية في منتصف الصيف الماضي. لقد كنتِ ستعتنين بأولادي، وكنت أفضل أن أدفع لكِ ثمناً جيداً لرعايتهم، على أن أذهب لأبحث عن امرأة قد تظن أنها تسدي لي معروفاً بعدم كرهها لهم.

- إذا كانت زوجتك لا تحب الأطفال فسوف تأخذني لخدمتك في العام القادم، وكن مطمئناً إلى أنني سوف أسليهم جيداً بحيث لا يلاحظون شيئاً.

7

على المستنقع

- آه"، قال جيرمان، بعد أن سارا بضع خطوات، "ماذا سيظن الناس في البيت عندما لا يرون هذا الصغير يعود إلى المنزل؟ سيقلق والداه وسيبحثون عنه في كل مكان.

- ستخبرين عامل الطريق بأنك ستأخذينه بعيداً، وستخبرينه أن يخبر أهلك.

- هذا صحيح يا ماري، أنتِ التي تفكرين في كل شيء؛ لم أكن أعتقد أن جيني يجب أن يكون هناك.

- وفي الواقع، إنه يعيش قريباً جداً من المزرعة؛ وسيكون متأكداً من قيامه بالمهمة. ولما تم اتخاذ هذا الاحتياط، أعاد جيرمان الفرس إلى الهرولة، وكان "بيتي بيير" في غاية السعادة لدرجة أنه لم ينتبه في الحال إلى أنه لم يتناول عشاءه؛ ولكن حركة الحصان كانت تحفر في معدته، فبدأ بعد ميل يتثاءب وشحب لونه واعترف بأنه يموت من الجوع.

- قال جيرمان: "ها قد عدنا مرة أخرى". كنت أعرف أننا لن نبتعد كثيراً دون أن يصرخ هذا السيد من الجوع أو العطش.

- أنا عطشان أيضاً!" قال بيتي بيير أو بيير الصّغير..

- حسنا إذن، سنذهب إلى "ملهى الأم ريبيك في كورلاي، في لو بوينت دو جور!" لافتة جميلة، لكن المسكن رديء! هيا يا ماري، يمكنك أن تشربي كأساً من النبيذ أيضاً.

- لا، لا، لست بحاجة إلى أي شيء، قالت: "سأعتني بالفرس بينما تذهب أنتِ مع الصغير.

- ولكنني أفكر يا فتاتي الطيبة، لقد أعطيتِ بيير هذا الصباح خبزاً لوجبة خفيفة وأنتِ صائمة، ولم ترغبي في تناول العشاء معنا في البيت، كل ما فعلته هو البكاء.

- أوه، لم أكن جائعة، كان لدي الكثير من المتاعب! وأقسم لك أنني حتى الآن لا أشعر بالرغبة في تناول الطعام.

- عليكِ أن تجبري نفسكِ، أيتها الصغيرة، وإلا ستمرضين. أمامنا طريق طويل، ولا يجب أن نذهب إلى هناك جائعين ونطلب الخبز قبل أن نلقي التحية. أريد أن أضرب لك مثلاً بنفسي، على الرغم من أن شهيتي ليست

مفتوحة؛ ولكنني سأتدبر أمري، فأنا أيضاً لم أتناول العشاء. لقد رأيتك أنت وأمك تبكيان وقد أحزنني ذلك. هيا، هيا، سأربط الرمادي بالباب؛ تعالي إلى الأسفل، أريدك أن تنزلي. ودخلوا ثلاثتهم إلى منزل ريبيك، وفي أقل من ربع ساعة استطاعت المرأة العرجاء السمينة أن تقدم لهم عجة بيض جميلة المظهر، وخبزاً أسمر ونبيذاً خفيفاً. وكان الفلاحون لا يأكلون بسرعة، وكانت شهية بيير الصغير كبيرة إلى درجة أنه مضى أكثر من ساعة قبل أن يتمكن جيرمان من التفكير في الانطلاق مرة أخرى. وكانت ماري الصغيرة قد أكلت في البداية بدافع الانغماس في الطعام، ثم بدأ الجوع يدب شيئاً فشيئاً، لأن المرء في السادسة عشرة من عمره لا يستطيع أن يستمر في الحمية طويلاً، والهواء في الريف مستبد. وكان للكلمات الرقيقة التي قالها جيرمان ليواسيها ويمنحها الشجاعة أثرها أيضاً؛ وحاولت أن تقنع نفسها بأن سبعة أشهر ستنتهي قريباً، وأن تفكر في مدى سعادتها بعودتها إلى عائلتها وفي ضيعتها، بعد أن وافق الأب موريس وجيرمان على أن يعداها بأن يخدماها في خدمتهما. ولكن بينما كانت قد بدأت تمتع نفسها وتمزح مع بيير الصغير، خطرت لجرمان فكرة مؤسفة وهي أن يجعلها تنظر من نافذة الملهى إلى المنظر الجميل للوادي الذي يمكن أن تراه من هذا المرتفع، وهو من الجمال

والخضرة والخصوبة بمكان. نظرت ماري إلى أعلى وسألت عما إذا كان يمكن رؤية منازل بلير من هناك.

- قال جيرمان: "لا شك، والمزرعة، وحتى منزلك. انظري، تلك النقطة الرمادية الصغيرة، ليست بعيدة عن شجرة الحور الكبيرة في غودار، أسفل برج الجرس.

- آه! أستطيع أن أراها"، قالت الفتاة الصغيرة؛ ثم بدأت بالبكاء مرة أخرى.

- قال جيرمان: "لقد كنت مخطئاً في جعلك تفكرين في ذلك"، قالت جيرمان: "أنا لا أفعل شيئاً اليوم سوى الحماقات! هيا بنا يا ماري، لنذهب يا ابنتي؛ فالنهار قصير، وبعد ساعة عندما يطلع القمر لن يكون الجو دافئاً. وانطلقوا مرة أخرى، وعبروا الهضبة العظيمة[28]، وبما أن جيرمان لم يستطع أن يجعل "الفرس الرمادية" لا غريز تسير بسرعة كبيرة، حتى لا تتعب الفتاة الصغيرة والطفل بالهرولة الشديدة، فقد كانت الشمس قد غربت عندما تركوا الطريق ليذهبوا إلى الغابة. وكان جيرمان يعرف الطريق إلى "لو ماغنييه"؛ ولكنه ظن أنه سيكون أقصر لو لم يسلك طريق "شانتيلوب" بل سلك طريق "بريسليس ولا سيبولت"، وهو اتجاه لم يكن معتاداً أن يسلكه عندما يذهب إلى المعرض. لقد أخطأ وأضاع مزيداً من الوقت قبل أن يدخل الغابة؛ ومع

[28] أرض قاحلة ينمو فيها الخلنج

ذلك فإنه لم يدخلها من الجانب الأيمن ولم ينتبه إلى ذلك، فأدار ظهره إلى فورش وذهب إلى أعلى نحو "أردنتس". ما منعه من العثور على اتجاهاته كان ضباب يتصاعد مع الليل، ضباب من ضباب الأمسيات الخريفية التي يجعلها بياض ضوء القمر أكثر غموضاً وخداعاً. وكانت البرك المائية الكبيرة التي تنتشر في الخلاء تنفث أبخرة كثيفة لدرجة أنه عندما كانت "الرمادية" لا غريز تمشي فيها لا يمكنك أن تعرف ذلك إلا من خلال تناثر أقدامها والصعوبة التي كانت تواجهها في إخراجها من الوحل. وعندما وجدوا أخيراً طريقاً مستقيماً لطيفاً وحاول جيرمان أن يرى أين هو، أدرك أنه قد ضل الطريق، لأن الأب موريس في شرحه للطريق أخبره أنه عندما يغادر الغابة عليه أن ينزل من منحدر شديد الانحدار، وأن يعبر مرجاً ضخماً ويمر على النهر مرتين. حتى أنه نصحه بأن يدخل النهر بحذر، لأنه في بداية الموسم كانت الأمطار غزيرة والمياه قد تكون مرتفعة قليلاً. لم يرَ جيرمان منحدراً ولا مرجاً ولا نهراً بل أرضاً منبسطة ومستنقعات بيضاء كالثلج، فتوقف وبحث عن منزل وانتظر عابر سبيل، ولكنه لم يجد شيئاً يمكن أن يعطيه أي معلومات. لذلك عاد إلى الوراء أي إلى الغابة. لكن الضباب ازداد كثافته، وكان القمر محجوباً تماماً، وكانت الطرقات موحشة، والحفر عميقة. وكادت

" لا غريز" أن تسقط مرتين، وكانت مثقلة بالأحمال، ففقدت شجاعتها، ولو أنها احتفظت بما يكفي من الفطنة حتى لا تصطدم بالأشجار، فإنها لم تستطع أن تمنع من كانوا يركبونها من أن يصطدموا بالأغصان الكبيرة التي كانت تسد الطريق على رؤوسهم وتعرضهم لخطر عظيم. فقد جيرمان قبعته في إحدى هذه المواجهات. وواجه صعوبة كبيرة في العثور عليه. وكان بيتي بيير قد غلبه النعاس وأطلق لنفسه العنان كالكيس فصار بين ذراعي أبيه فلم يعد يستطيع أن يسند الحصان أو يوجهه.

- قال جيرمان متوقفاً: أعتقد أننا مسحورون، لأن هذه الغابة ليست كبيرة بما فيه الكفاية لكي نضيع فيها إلا إذا كنا سكارى، ونحن ندور حول المكان منذ ساعتين على الأقل دون أن نتمكن من الخروج منه. لا غريز لديها شيء واحد فقط في ذهنها، وهو العودة إلى البيت، وهي التي خدعتني. إذا أردنا نحن العودة إلى المنزل، كل ما علينا فعله هو السماح لها بذلك. ولكن عندما نكون ربما على مرمى حجر من المكان الذي يجب أن ننام فيه، فلا بد أن تكون مجنونة لتستسلم وتبدأ رحلة طويلة كهذه مرة أخرى. ومع ذلك، لا أعرف ماذا أفعل. إنني لا أستطيع أن أرى السماء ولا الأرض، وأخشى أن

يصاب هذا الطفل بالحمى إذا بقينا في هذا الضباب اللعين، أو أن يسحقه ثقلنا إذا سقط الحصان إلى الأمام.

- قالت ماري الصغيرة: "يجب ألا نكون أكثر عناداً". لننزل يا جيرمان، أعطني الطفل، سأحمله جيداً، وسأقوم بعمل أفضل منك في منع العباءة من أن تنحلّ وتتركه مكشوفاً. أنت ستقود الفرس من اللجام، ولعلنا سنرى بوضوح أكثر عندما نقترب من اليابسة. ولم ينقذهما ذلك إلا من السقوط عن فرسيهما، إذ كان الضباب يتدفق، ويبدو أنّه التصق بالأرض الرطبة. كان المسير مؤلماً، وسرعان ما أصابهم الإرهاق الشديد لدرجة أنهم توقفوا عندما وجدوا أخيراً بقعة جافة تحت بعض أشجار البلوط الكبيرة. كانت ماري الصغيرة في أوج السباحة لكنها لم تتذمر أو تقلق من أي شيء. وانشغلت فقط بالطفل، وجلست على الرمال ووضعته في حضنها، بينما كان جيرمان يستكشف ما حوله، بعد أن مرر لجام الرمادية من خلال غصن شجرة. لكن الرمادية التي كانت تشعر بالملل الشديد من هذه الرحلة، ركلت بشراسة إلى الوراء وأطلقت اللجام وفكّت الأربطة، وكبادرة حسن نية، أطلقت نصف دزينة من الركلات أعلى من رأسها، وانطلقت عبر الشجيرات، وأظهرت بوضوح أنها لم تكن بحاجة إلى أحد ليساعدها في العثور على طريقها.

- قال جرمان بعد أن حاول عبثاً اللحاق بها: ها نحن أولاء نسير على أقدامنا، ولن يفيدنا أن نكون على الطريق الصحيح، لأننا سنضطر إلى عبور النهر مشياً على الأقدام؛ وإذ نرى كيف أن هذه الطرق مليئة بالمياه، يمكننا أن نكون متأكدين تماماً من أن المرج تحت النهر. نحن لا نعرف الطرق الأخرى. لذا علينا أن ننتظر انقشاع هذا الضباب؛ لا يمكن أن يستمر أكثر من ساعة أو ساعتين. وعندما نرى بوضوح، سنبحث عن منزل، أول منزل يأتي على حافة الغابة؛ ولكننا الآن لا نستطيع الخروج من هنا؛ فهناك خندق أو بركة لا أعرف ما أمامنا؛ وخلفها لا أستطيع أن أعرف ما يوجد هناك أيضاً، لأنني لا أستطيع أن أفهم من أي جانب جئنا.

8

تحت أشجار البلوط العظيمة

- حسناً، لنصبر يا جيرمان"، قالت ماري الصغيرة. نحن لسنا في حالة سيئة على هذا التل الصغير. فالمطر لا يخترق أوراق الشجر في هذه السنديان الكبيرة، ويمكننا أن نشعل ناراً، لأنني أستطيع أن أشم رائحة بعض جذوع الأشجار القديمة التي تتشبث بخيط وهي جافة بما يكفي لتشتعل فيها النار. هل لديك ولاعة يا "جيرمان"؟ كنت تدخن غليونك في وقت سابق.

- كانت معي ولاعة على عود في حقيبتي مع اللعبة التي كنت أحملها لمستقبلي؛ ولكن الفرس الملعونة أخذت كل شيء حتى معطفي الذي ستفقده وتمزقه إرباً إرباً.

- لا على الإطلاق يا جيرمان؛ إن سرج الحقيبة[29]، والمعطف، و الكيس، كل شيء هناك على الأرض عند قدميك. وقد كسرت "لا غريز" الأشرطة ورمت كل شيء بجانبها عندما غادرت.

[29] كلمة من اللهجة البريشونية: le bât.

- و إذا تمكنا من العثور على قطعة من الخشب الميت نجدها في المكان، سنتمكن من التجفيف والتدفئة.

- قالت ماري الصغيرة: "ليس الأمر صعباً، فالخشب الميت يصدر صريراً في كل مكان تحت الأقدام؛ ولكن أعطني العصا هنا أولاً.

- ماذا تريد أن تفعل بها؟

- سرير للصغير: كلا، ليس هكذا، بل مقلوباً؛ إنه لن يتدحرج في الممر؛ وهو لا يزال دافئاً من ظهر الحيوان. أعطني إسفينًا على كل جانب مع تلك الحجارة التي تراها هناك!

- لا أستطيع رؤيتهم! لديك عيون قطة!

- ها قد انتهيت يا جيرمان أعطني معطفك حتى أتمكن من لف قدميه الصغيرتين ورائي على جسده. أترى! إذا لم يكن مستلقياً هناك كما هو في جاف لا بأس، انفخ الآن؛ ألست متعب الرئة[30]؟

- قال جيرمان وهو ينفخ مثل منفاخ الحدادة: "ليس على حد علمي". وبعد لحظة، توهج اللهب، فألقى ضوءًا أحمر في البداية، ثم ارتفع أخيرًا في نفاثات مزرقة تحت أوراق البلوط، فصار يقاوم الضباب، وأخذ يجفف الجو من حوله

[30] مرض رئوي رئوي رئوي

عشرة أقدام تدريجيًّا. - قالت الفتاة الصغيرة: "والآن، سأجلس بجانب الصبي حتى لا يسقط الشرر على جسده. ضعي الحطب وأشعلي النار يا جيرمان! أعدك بأننا لن نصاب بالحمى أو البرد هنا، أعدك بذلك. - قالت جيرمان: "يا إلهي، أنت فتاة بارعة"، أنت تعرفين كيف تشعلين النار مثل ساحرة الليل الصغيرة. إنني أشعر بأنني قد انتعشت كل الانتعاش، وأن قلبي قد عاد إليَّ، لأن ساقيَّ مبللتان حتى الركبتين، وفكرة البقاء هكذا حتى الفجر، كنت في مزاج سيئ جدًّا الآن. [31] ـ وعندما تكون في مزاج سيئ لا تجرؤ على فعل أي شيء.

- وأنت لست في مزاج سيئ أبداً؟

- لا، أبدًا. ما الفائدة؟

- أوه، إنه لا يفيد في أي شيء بالطبع، ولكن كيف يمكنك أن تساعد في ذلك عندما تكون في ورطة؟ يعلم الله أنكِ لم تكوني أبداً في مزاج سيء يا صغيرتي المسكينة، لأنكِ لم تكوني دائماً سعيدة!

- هذا صحيح، لقد عانيت أنا وأمي المسكينة. لقد كنا حزينين، ولكننا لم نفقد قلبنا أبداً.

[31] مرض رئوي .

- أما أنا فلم أكن لأفقد قلبي من أجل أي عمل، ولكن البؤس كان يغضبني لأنني لم ينقصني شيء قط. لقد جعلتني زوجتي غنياً وما زلت غنياً، وسأظل غنياً ما دمت أعمل في المزرعة: وآمل أن يكون هذا هو الحال دائماً؛ ولكن على كل إنسان أن يعاني! لقد عانيت بشكل مختلف.

- نعم، لقد فقدت زوجتك، وهذا أمر مؤسف للغاية.

- أليس كذلك؟

- أوه، لقد بكيت عليها يا جيرمان، لأنها كانت جيدة جداً! حسناً، دعنا لا نتحدث عن ذلك بعد الآن، لأنني سأبكي عليها مرة أخرى، كل أحزاني تعود إليّ اليوم.

- صحيح أنها كانت تحبك كثيراً يا ماري الصغيرة! لقد كانت تحبك أنت وأمك كثيراً. هل تبكين؟ هيا يا ابنتي، لا أريد أن أبكي...

- !"لكنك تبكي يا "جيرمان أنت تبكي أيضاً! ما العيب في أن يبكي الرجل على زوجته؟ لا تخجل! أنا نصف معك في هذا الحزن!

- "لديك قلب طيب يا "ماري، ويسعدني أن أبكي معك ولكن ضعي قدميك بالقرب من النار؛ تنورتك مبللة بالكامل، أيتها المسكينة الصغيرة!

هاكِ، سآخذ مكانك بجانب الصبي، حتى تدفئي نفسك بشكل أفضل من ذلك.

- قالت ماري: (أنا دافئة بما فيه الكفاية)؛ و إذا أردت أن تجلس فلتأخذ زاوية من المعطف، فأنا مرتاحة تماماً.

- قال جيرمان وهو جالس بجانبها: (في الحقيقة إن الجو ليس سيئاً هنا. الجوع فقط هو ما يزعجني قليلاً. لقد تجاوزت الساعة التاسعة مساءً، وقد عانيت كثيراً من المشي في هذه الطرقات الوعرة لدرجة أنني أشعر بالضعف الشديد. ألست جائعة أيضاً يا "ماري"؟

- أنا؟ لا على الإطلاق. أنا لست معتادة على تناول أربع وجبات مثلك، وقد خلدت إلى الفراش دون عشاء مرات عديدة لدرجة أنني لم أتفاجأ عندما وجدت أنني جائعة مرة أخرى.

- قال جيرمان مبتسماً: "حسناً، من المريح امرأة مثلك؛ إنها لا يكلف الكثير".

- قالت ماري بسذاجة: "أنا لست امرأة"، ولم تلاحظ المنعطف الذي أخذته أفكار الحراث. هل تحلم؟

- أجل، أعتقد أنني أحلم"، أجاب جيرمان: "ربما الجوع هو الذي جعلني أهذي!

- حسناً، إذا كنت لا تستطيع أن تمضي خمس أو ست ساعات دون أن تأكل، أليس لديك بعض الطرائد في حقيبتك ونار تطبخها عليها؟

- هذه فكرة جيدة! لكن ماذا عن هدية لحماي المستقبلي؟

- لديك ستة طيور حجل وأرنب بري! لا أعتقد أنك بحاجة إلى كل ذلك لإرضائك؟

- لكن طبخها هنا، بدون أواني معدة لذلك سيحولها إلى فحم!

- كلا، تقول ماري الصغيرة، سأطبخها لك تحت الرماد بدون طعم الدخان. ألم تصطد قبرة من قبل في الحقول وتطبخها بين حجرين؟ أوه، هذا صحيح! لقد نسيت أنك لم تكن راعياً! !هيا، اقطف هذا الحجل !ليس بهذه الصعوبة أنت تنتف جلده.

- يمكنك نتف الآخر لتريني إياه!

- هل تريد أن تأكل اثنين منهم؟ ! يا له من غول هيا، لقد نتفتهما، سأطبخهما.

- كنتِ ستكونين فتاة مقصف رائعة يا ماري الصغيرة؛ ولكن، لسوء الحظ، ليس لديكِ مقصف [32]، وسأكتفي بشرب الماء من هذه البركة.

- تريدين بعض النبيذ، أليس كذلك؟ ربما تريدين بعض القهوة؟ أتظن أنك في المعرض تحت البيدر[33]! نادِ صاحب الحانوت: الخمر لحرّاث بيلير الرائع!

- آه، أيتها الفتاة الشقية هل تسخرين مني؟ ألن تشربي الخمر لو كان لديك خمر؟

- أنا؟ لقد شربت بعضاً منه معك هذا المساء عند ريبيك، للمرة الثانية في حياتي؛ ولكن إذا كنت طيباً جداً، فسأعطيك زجاجة تكاد تمتلئ وبعضاً من الخمر الجيد أيضاً!

- ماري، أنتِ ساحرة، أليس كذلك؟

- ألم ترتكبي حماقة بطلبك من ريبيك زجاجتين من النبيذ، أليس كذلك؟ لقد شربت واحدة مع صغيرك الصغير، وبالكاد ابتلعت ثلاث قطرات من الزجاجة التي وضعتها أمامي. ومع ذلك دفعت ثمنهما معاً دون أن تنظر. - هل فعلت؟

- حسناً، لقد وضعت التي لم تشربها في سلتي لأني ظننت أنك أو صغيرك قد تكونان عطشانين في الطريق، وها هي ذي.

---

[32] صندوق صغير مع مقصورات تستخدم لنقل النبيذ والمشروبات الكحولية.

[33] مجموعة من الأغصان المتشابكة على شكل طوق لتوفير الظل، كما لا يزال يُرى في حدائق النزل الريفية.

- .أنتِ أكثر فتاة حكيمة قابلتها في حياتي لقد كانت الطفلة المسكينة تبكي عندما غادرت النزل، ولكن ذلك لم يمنعها من التفكير في الآخرين أكثر من نفسها. ماري الصغيرة، الرجل الذي سيتزوجك لن يكون أحمق. - أتمنى ذلك، لأنني لا أحب أن يكون أحمق. هيا، تناولي الحجل الخاص بك، فهو مطبوخ بشكل مثالي؛ ولعدم وجود الخبز، عليك أن تكتفي بالكستناء.

- ومن أين أتيت بالكستناء؟

- إنه لأمر مدهش! على طول الطريق، التقطت بعضًا منها من على الأغصان أثناء مروري وحشوت جيوبي بها.

- وهل هي مطبوخة أيضًا؟

- ماذا كنت سأفكر لو لم أضعهم في النار بمجرد إشعالها؟ هذا ما نفعله دائماً في الحقول.

- آه نعم يا ماري الصغيرة، سنتناول العشاء معاً! أريد أن أشرب نخب صحتك وأتمنى لك زوجاً صالحاً كما كنت تتمنين لنفسك. أخبريني عن ذلك!

- "لا أريد ذلك يا "جيرمان لأنني لم أفكر فى ذلك بعد.

- ماذا تقصدين بأنك لم تفكري في الأمر على الإطلاق؟" قال جيرمان وهو يتناول الطعام بشهية الحراث، ولكنه قطع أفضل القطع ليقدمها لرفيقته التي

رفضت بعناد واكتفت ببعض الكستناء. وواصل كلامه قائلاً: ـــ (أخبريني يا ماري الصغيرة) ثم تابع وهو يرى أنها لم تكن تفكر في إجابته: ألم تفكري في الزواج بعد، فأنت كبيرة بما فيه الكفاية!

- ربما"، قالت: "ربما، لكنني فقيرة جداً. أحتاج على الأقل إلى مائة إيكوس لتكوين أسرة، وعليّ أن أعمل لمدة خمس أو ست سنوات لأجمعها.

- فتاة مسكينة! أتمنى أن يعطيني الأب موريس مائة قرش كهدية.

- شكراً جزيلاً يا "جيرمان". حسناً، ماذا سيقولون عني؟

- ماذا تريدينهم أن يقولوا؟ إنهم يعرفون أنني عجوز ولا يمكنني الزواج بكِ لذا لن يفترضوا بأنني... بأنك...

- قل، أيها الحراث! ها قد استيقظ طفلك"، قالت ماري الصغيرة.

9

صلاة المساء

استيقظ بيتي بيير ونظر حوله بتأمل.

- آه، إنه لا يفعل شيئاً آخر عندما يسمع شيئاً ليأكله، ذلك الذي لم يكن صوت إطلاق المدافع ليوقظه من نومه؛ ولكن عندما تحرك فكيك بالقرب منه يفتح عينيه في الحال.

- لا بد أنك كنت كذلك في مثل سنه) هيا يا بيير الصغير، هل تبحث عن مظلتك؟ إنها مصنوعة من الخضرة هذا المساء، يا صغيري، ولكن والدك سيتناول العشاء بنفس الطريقة. هل ترغب في تناول العشاء معه؟ أنا لم آكل حصتك؛ كنت أعرف أنك ستطلبين ذلك!

- "ماري، أريدك أن تأكلي"، صرخ الحراث: "لن آكل المزيد. أنا شره، أنا وقح: أنت تحرمين نفسك من أجلنا، هذا ليس عدلاً، أنا خجلان. إن هذا يزيل جوعي؛ لا أريد أن يأكل ابني إذا لم تأكلي أنت.

- فأجابت ماري الصغيرة: "دعنا وشأننا"، أنت لا تملك مفتاح شهيتنا. إن شهيتي مغلقة اليوم، ولكن شهية بيير مفتوحة مثل الذئب الصغير، انظري كيف يتدبر أمره. هنا، انظر كيف يفعلها أوه، وقال انه سوف يكون حراثا قويا أيضا! وبالفعل، سرعان ما أظهر بيتر الصغير ابن من هو، وما إن استيقظ، ولم يكن يعرف أين هو ولا كيف وصل إلى هناك، حتى بدأ يلتهم. ثم عندما لم يعد جائعاً، ووجد نفسه متحمساً كما يتحمس الأطفال عندما يكسرون عاداتهم، أصبح أكثر ذكاءً وأكثر فضولاً وأكثر تفكيراً من المعتاد. سأل أين هو، وعندما عرف أنه في وسط الغابة، خاف قليلاً.

- وسأل والده: هل هناك أي حيوانات شريرة في هذه الغابة؟

- قال الأب: "لا، لا يوجد". لا تخف.

- إذن فقد كذبت عندما أخبرتني أنني إذا ذهبت معك إلى الغابة فإن الذئاب ستنال مني؟

- " قال جيرمان محرجاً: "هل ترى هذا المبرر؟

- " قالت ماري الصغيرة: "إنه على حق، لقد قلت له ذلك: إن ذاكرته قوية وهو يتذكر. ولكن تعلم يا صغيري بيير أن أباك لا يكذب أبداً. لقد مررنا عبر

الغابة الكبيرة بينما كنت نائماً، والآن نحن في الغابة الصغيرة، حيث لا توجد وحوش شريرة.

- كم تبعد الغابة الصغيرة عن الغابة الكبيرة؟

- بعيدة بما فيه الكفاية؛ بالإضافة إلى أن الذئاب لا تخرج من الغابة الكبيرة. إلى جانب ذلك، إذا جاء أي منها إلى هنا فإن والدك سيقتلها.

- وأنت أيضاً يا ماري الصغيرة؟

- وأنا أيضاً، لأنك ستساعدنا، أليس كذلك يا بيير؟ ألستِ خائفا؟ كنت ستضربهم!

- "نعم، نعم"، قالها الطفل الفخور متخذاً وضعية بطولية: "نعم، نعم"، سنقتلهم!

- لا يوجد أحد مثلك في التحدث إلى الأطفال"، قال جيرمان لماري الصغيرة. صحيح أنك أنت نفسك كنت طفلاً صغيراً منذ وقت ليس ببعيد، وتذكرين ما كانت أمك تقوله لك. أنا أؤمن بأنك كلما كنت أصغر سناً، كلما كان من الأفضل لك أن تتعايشي مع من هم صغار السن. أخشى كثيراً أن امرأة في الثلاثين من عمرها، لم تعرف بعد معنى الأمومة، ستجد صعوبة في تعلم الثرثرة والتفاهم مع الصغار.

- لم لا يا "جيرمان"؟ أنا لا أعرف لماذا لديك فكرة سيئة عن هذه المرأة؛ سوف تتخطى الأمر!

- !فلتذهب المرأة إلى الجحيم أود أن أعود منها ولا أعود إليها أبداً. ما حاجتي بامرأة لا أعرفها؟

- قال الطفل: يا أبي الصغير، لماذا لا تزال تتحدث عن زوجتك اليوم إذا كانت قد ماتت؟

- واحسرتاه! إذن أنت لم تنس أمك المسكينة العزيزة؟

- كلا، لأني رأيتها وقد وضعت في صندوق خشبي أبيض جميل، وأخذتني جدتي إلى هناك لأقبلها قبلة الوداع! كانت بيضاء وباردة، وفي كل ليلة تجعلني عمتي أدعو الله كل ليلة أن تذهب لتستدفئ عندها في الجنة. هل تعتقد أنها هناك الآن؟

- آمل ذلك يا طفلي؛ ولكن يجب أن تصلي دائماً، فهذا يدل على حبك لوالدتك.

- سأتلو صلاتي"، تابع الطفل: "لم أفكر أن أتلوها الليلة. ولكنني لا أستطيع أن أتلوها بمفردي؛ فأنا دائمًا ما أنسى قليلاً. على ماري الصغيرة أن تساعدني.

- نعم، بيير، سأساعدك"، قالت الطفلة الصغيرة. تعال هنا واركع عليَّ. ركع الطفل على تنورة الفتاة، وشبك يديه الصغيرتين معاً، وبدأ يتلو صلاته، في البداية بانتباه وحماس، لأنه كان يعرف بدايتها جيداً، ثم ببطء وتردد أكثر، وأخيراً ردد كلمة بكلمة ما كانت تمليه عليه ماري الصغيرة، عندما وصل إلى الجزء من صلاته الذي لم يتمكن من حفظه حتى النهاية لأنه كان يغفو كل مساء. وفي هذه المرة أيضاً، أحدث إجهاد الانتباه ورتابة لهجته تأثيرهما المعتاد؛ ولم يلفظ المقاطع الأخيرة إلا بجهد، ثم لم يلفظها إلا بعد أن كررها ثلاث مرات؛ وثقل رأسه وانحنى على صدر ماري؛ وارتخت يداه وانفصلتا وسقط على ركبتيه. وعلى ضوء نار الخيمة، نظر جرمان إلى ملاكه الصغير الغافي على قلب الفتاة الصغيرة التي كانت تحمله بين ذراعيها وتدفئ شعره الأشقر بأنفاسها الطاهرة، وكانت قد استسلمت هي الأخرى إلى خيالات التقوى وكانت تصلي عقلياً على روح كاثرين. وتأثر جيرمان وحاول أن يفكر فيما يمكن أن يقوله لماري الصغيرة ليعبر لها عن تقديره وامتنانه لها، ولكنه لم يجد ما يعبر به عن أفكاره. فذهب إليها ليقبل ابنه الذي كانت تحمله بين ذراعيها.

بالكاد استطاع أن يبعد شفتيه عن جبين بيير الصغير.

- قالت ماري، وهي تدفع رأس الحراث برفق إلى الوراء: "إنك تقبله بقوة. دعني أعيده إلى الفراش، بما أنه سيذهب مرة أخرى ليحلم بأحلام السماء. ترك الطفل نفسه مستلقياً، ولكن بينما كان يتمدد على جلد الماعز في سرج القطيع، سألني إن كان على "الغريز" الفرس الرمادية. ثم فتح عينيه الزرقاوين الكبيرتين وثبتهما على الأغصان لدقيقة، وبدا وكأنه يحلم يقظة تامة، أو كأنما خطرت له فكرة انزلقت إلى ذهنه أثناء النهار، وصاغها هناك مع اقتراب النوم.

- قال: يا أبي الصغير، إذا أردت أن تهبني أماً أخرى فأريدها أن تكون ماري الصغيرة. ودون أن ينتظر جواباً، أغمض عينيه ونام.

10

رغم البرد

وعلى الرغم من البرد لم تبد ماري الصغيرة أي اهتمام بكلمات الطفل الغريبة سوى أنها اعتبرتها دليلاً على الصداقة، فلفته بعناية وأوقدت النار من جديد، وبما أن الضباب الذي كان قد سقط فوق البركة القريبة لم يكن يبدو أنه على وشك الانقشاع، فقد نصحت جيرمان بأن يرتب نفسه بجانب النار ليأخذ قيلولة.

- قالت له: "أستطيع أن أرى أنك قد استوعبت الأمر بالفعل، لأنك لم تعد تنطق بكلمة واحدة، وأنت تنظر إلى الجمر كما فعل صغيرك الآن. اذهب إلى النوم، سأعتني بالطفل وبك.

- فأجابه الحراث: (أنت الذي سينام وأنا سأعتني بكما، لأني لم أرغب يوماً في النوم أقل من ذلك؛ وفي رأسي خمسون فكرة).

- قالت الفتاة الصغيرة ساخرة قليلاً: (إن الخمسين كثيرة)

- قالت الفتاة الصغيرة: (إن الخمسين كثيرة)

- هناك الكثير من الناس الذين يسعدهم أن يكون لهم واحد!

- حسنًا، إذا لم يكن بإمكاني الحصول على خمسين فكرة، فعلى الأقل لديّ واحدة لم تفارقني منذ ساعة.

- و سأخبرك بها كما أخبرتك بها من قبل.

- حسناً، نعم، أخبريني إن كنتِ تستطيعين تخمينه يا ماري، أخبريني بنفسكِ، فسيسعدني ذلك.

- منذ ساعة مضت"، تابعت: "كانت لديك فكرة الأكل... والآن لديك فكرة النوم.

- ماري، أنا مجرد راعي بقر، ولكنك تحسبينني ثورًا. أنت فتاة شقية، وأرى أنك لا تريدين التحدث معي. اذهبي إلى النوم، سيكون أفضل من انتقاد رجل ليس مثلي الجنس.

- إذا كنت تريدين التحدث، فلنتحدث"، قالت الفتاة الصغيرة وهي مستلقية نصفها بجانب الطفل، ومال رأسها على العمود. أنت تعذب نفسك يا جيرمان، وفي ذلك لا تظهر الكثير من الشجاعة بالنسبة لرجل. ماذا عساي أن أقول إن لم أدافع عن نفسي قدر استطاعتي ضد أحزاني؟ - نعم، بالطبع، وهذا هو بالضبط ما يقلقني يا طفلتي المسكينة! إنك ستعيشين بعيداً عن أهلك في

بلاد قبيحة من المستنقعات حيث ستصابين بحمى الخريف، وحيث لا تنفعك الحيوانات الصوفية، وهذا ما يزعج دائماً راعية تنوي الخير؛ وباختصار ستكونين بين غرباء قد لا يعطفون عليك، ولن يفهموا ما تستحقين. هذا يؤلمني أكثر مما يمكنني أن أقول، وأريد أن أعيدك إلى أمك بدلاً من الذهاب إلى فورش.

- إنك تتكلم بلطف شديد، ولكن بلا سبب، يا جرمان المسكين؛ يجب ألا تكون جبان أمام أصدقائك، وبدلاً من أن تريني الجانب السيئ من قدري، يجب أن تريني الجانب الحسن، كما فعلت عندما تناولنا طعامنا في "الريبك".

- ماذا تتوقعين؟ هكذا بدا لي الأمر حينها، وهكذا يبدو لي الآن. من الأفضل أن تجدي زوجاً.

- هذا غير ممكن يا جيرمان، لقد أخبرتك بذلك؛ وبما أنه غير ممكن، فأنا لا أفكر في ذلك.

- ولكن ماذا لو فعلت؟ ربما لو أردتِ أن تخبريني كيف تريدينه أن يكون، ربما أستطيع أن أتخيل شخصاً ما.

- التخيل ليس إيجاد. أنا لا أتخيل أي شيء لأنه عديم الفائدة.

- أنت لا تتخيلين فكرة إيجاد شخص غني، أليس كذلك؟

- لا، بالطبع لا، لأنني فقير مثل أيوب. - ولكن إذا كان ميسور الحال، ألا يزعجك أن يكون مسكنك جيدًا، ومطعمك جيدًا، وملبسك جيدًا، وفي عائلة من أهل الخير الذين يسمحون لك بمساعدة أمك؟

- أوه، من أجل ذلك، نعم أحب أن أساعد أمي.

- و إذا حدث ذلك، حتى لو لم يكن الرجل من أفضل الشباب، فلن تكوني صعبة الإرضاء؟

- سامحني يا جيرمان هذا هو الشيء ذاته الذي أرغب به !لا أريد رجلاً عجوزاً

- رجل عجوز، بلا شك؛ ولكن، على سبيل المثال، رجل في مثل عمري؟ - عمرك كبير بالنسبة لي يا "جيرمان"؛ أود أن يكون بسن "باستيان"، على الرغم من أن "باستيان" ليس رجلاً جميلاً مثلك.

- هل تفضلين باستيان حارس الخنازير؟ قالها جيرمان بمزاجية. فتى بعينين مثل الحيوانات التي يرعاها؟

- كنت لأفضله على عينيه، لأنه في الثامنة عشر من عمره. شعر جيرمان بغيرة فظيعة.

- هيا، قال: "هيا، أرى أن لديك شيء لباستيان. إنها فكرة مضحكة، لا أقل من ذلك!

- أجل، ستكون فكرة مضحكة"، أجابت ماري الصغيرة ضاحكة بصوت عالٍ: "نعم، ستكون فكرة مضحكة. سنجعله يصدق أي شيء نريده. على سبيل المثال، في ذلك اليوم قطفتُ طماطم في حديقة الكاهن؛ وقلت له إنها تفاحة حمراء جميلة من نوع، فقضمها مثل النهم. كان عليك أن ترى وجهه! يا إلهي، لقد كان قبيحاً!

- إذن أنتِ لا تحبينه بما أنكِ تسخرين منه؟

- لن يكون هذا سببًا. ولكنني لا أحبه: إنه وحشي مع أخته الصغيرة، وقذر.

- ألا تشعرين بالميل نحو شخص آخر؟

- ما الذي يهمك يا "جيرمان"؟

- لا يهمني، أنا أتحدث فقط. أرى أيتها الفتاة الصغيرة، أنكِ بالفعل لديكِ عشيق في رأسكِ.

- لا يا جيرمان، أنت مخطئ، لم أحصل على واحد بعد، قد يأتي ذلك لاحقاً: لكن بما أنني لن أتزوج حتى أحصل على بعض المال، فإنني مقدر لي أن أتزوج متأخراً ومن رجل عجوز.

- حسناً، احصلي على رجل عجوز في الحال.

- لا على الإطلاق! عندما لا أكون شابة، لن أمانع في ذلك؛ أما الآن، فسيكون الأمر مختلفاً.

- يمكنني أن أرى يا ماري أنك لا تحبيني: هذا واضح بما فيه الكفاية"، قال جيرمان بحقد، دون أن يزن كلماته. لم ترد ماري الصغيرة. وانحنى جيرمان فوقها: لقد كانت نائمة؛ وكانت قد سقطت مهزومة وكأنما غلبها النعاس كالأطفال الذين ينامون وهم لا يزالون يثرثرون. وكان جيرمان مسروراً لأنها لم تعره أي اهتمام لكلماته الأخيرة؛ وأدرك أنها لم تكن حكيمة فأدار لها ظهره ليصرف نفسه ويغير أفكاره. ولكن مهما حاول جاهداً، لم يستطع أن ينام أو يفكر في أي شيء آخر غير ما قاله للتو. وأخيراً، شعر بالاضطراب كما لو كان قد ابتلع بارود‌اً، واتكأ على الشجرة التي كانت تؤوي الطفلين وراقبهما وهما نائمان.

- لا أدري كيف لم أدرك قط، كما فكر، أن ماري الصغيرة هي أجمل فتاة في البلاد! إنها ليست زاهية الألوان، ولكن وجهها الصغير النضر مثل وردة الأدغال! يا له من فم جميل وأنف صغير لطيف! إنها ليست طويلة القامة بالنسبة لعمرها، لكنها رشيقة كطائر السمان الصغير وخفيفة كالعصفور

الصغير! لا أعرف لماذا نثير كل هذه الضجة حول امرأة طويلة وسمينة وحمراء اللون... فتاتي كانت نحيفة وشاحبة نوعاً ما، وقد أحببتها أكثر من الجميع... أما هذه فهي رقيقة جداً، ولكنها ليست أسوأ حالاً، وهي جميلة المنظر كفتاة بيضاء! وما أحلى وجهها الصادق الجميل، تستطيع أن ترى طيبة قلبها في عينيها حتى وهي مغمضة العينين في النوم! أما خفة دمها فهي تملك منها أكثر مما كانت تملكه عزيزتي كاثرين، ولا بد من الاعتراف بذلك، ولا يمكن للمرء أن يمل منها أبداً! فهي مرحة وحكيمة ومجتهدة ومحبوبة ومضحكة. لا أعرف ماذا يمكن أن يكون أفضل من ذلك... ولكن ما الذي يجعلني أقلق من كل ذلك." وتابع جيرمان محاولاً أن ينظر في الاتجاه الآخر. لن يريد والد زوجتي أن يسمع عن هذا الأمر، وستنعتني العائلة كلها بالجنون! والأكثر من ذلك، فإن الطفلة المسكينة نفسها لن ترغب في أن يكون لها علاقة بي! إنها تعتقد أنني عجوز، قالت لي ... إنها غير مهتمة، ولا يهمها أن تظل تعاني البؤس والألم، وترتدي ثياباً رديئة، وتجوع شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة، ما دامت ترضي قلبها يوماً ما، وتهب نفسها لزوج يرضيها... إنها على حق، إنها على حق! وأنا لو كنت مكانها لفعلت مثلها... ومن الآن فصاعداً، لو كان في استطاعتي أن أتبع رغباتي الخاصة، بدلاً من التورط في زواج لا

يناسبني، لاخترت فتاة من اختياري...". وكلما حاول جيرمان أن يهدئ من روعه، كلما كان أقل قدرة على ذلك. كان يبتعد عشرين خطوة، ويضيع في الضباب، ثم فجأة يجد نفسه راكعاً بجانب الطفلين النائمين. حتى أنه أراد ذات مرة أن يقبل "بيتي بيير" الذي كان يضع إحدى ذراعيه حول عنق ماري، فأخطأ في ذلك حتى أن ماري شعرت بأنفاس حارة كالنار تجري على شفتيها، فاستيقظت ونظرت إليه في حيرة تامة، ولم تفهم على الإطلاق ما كان يحدث في داخله.

- لم أستطع رؤيتكم يا أطفالي المساكين! قال جيرمان وهو ينسحب بسرعة. كدت أن أسقط عليكم وأؤذيكم. كان لدى ماري الصغيرة الصراحة الكافية لتصديقه، وعادت إلى النوم. ذهب جيرمان إلى الجانب الآخر من النار وأقسم بالله أنه سيبقى هناك حتى تستيقظ. لقد أوفى بوعده، لكن ذلك لم يكن بدون صعوبة. ظن أنه سيصاب بالجنون. وأخيراً، وأخيراً، في منتصف الليل تقريباً، انقشع الضباب واستطاع جيرمان أن يرى النجوم تلمع من خلال الأشجار. كما أزال القمر أيضاً الأبخرة التي كانت تغطيه وبدأ يزرع الماس على الطحالب الرطبة. وظلت جذوع أشجار البلوط في ظلام مهيب؛ ولكن على مسافة أبعد قليلاً، بدت السيقان البيضاء لأشجار البتولا وكأنها صف

من الأشباح في أكفانها. وكانت النار تنعكس على البركة؛ وكانت الضفادع التي بدأت تعتاد على البركة تنبعث منها بعض النغمات الخجولة المتناثرة؛ وكانت الأغصان الزاويّة للأشجار القديمة التي تتلألأ بالأشنة الشاحبة تمتد وتتقاطع كأذرع عظيمة شاحبة فوق رؤوس المسافرين، لقد كان مكاناً جميلاً، ولكنه كان مهجوراً وحزيناً إلى درجة أن جيرمان الذي سئم من المعاناة هناك أخذ يغني ويرمي الحجارة في الماء ليخفف عن نفسه ملل العزلة المخيف. وأراد هو أيضاً أن يوقظ ماري الصغيرة، ولما رآها قد استيقظت وأخذت تنظر إلى الطقس، اقترح عليها أن ينطلقا مرة أخرى. وقال لها: ــ إن اقتراب ضوء النهار سيجعل الهواء بارداً جداً بعد ساعتين ولن نستطيع أن نتحمله رغم النار التي سنشعلها... والآن سنرى كيف نتصرف، وسنجد منزلاً يفتح لنا، أو على الأقل حظيرة ما يمكننا أن نقضي فيها بقية الليل تحت غطاء. لم يكن لدى ماري إرادة خاصة بها، وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال ترغب في النوم، إلا أنها قررت أن تتبع جيرمان. فأخذ ابنه بين ذراعيه دون أن يوقظه، وأراد أن تقترب ماري منه لتختبئ في عباءته، لأنها لم تكن تريد أن تستعيد عباءتها الملفوفة حول بيير الصغير. وعندما شعر بالفتاة قريبة منه إلى هذا الحد، بدأ جيرمان الذي كان مشتت الذهن ومبتهجاً للحظة، بدأ يفقد صوابه مرة أخرى.

وابتعد فجأة مرتين أو ثلاث مرات، تاركاً إياها تمشي وحدها. ثم لما رأى أنها وجدت صعوبة في اللحاق به، انتظرها وجذبها إليه وضغط عليها بقوة حتى فوجئت بل غضبت، دون أن تجرؤ على البوح بذلك. وبما أنهما لم يكونا يعرفان في أي اتجاه انطلقا لم يعرفا في أي اتجاه هما ذاهبان؛ لذلك صعدا الغابة كلها مرة أخرى، ووجدا نفسيهما ثانية في مواجهة المستنقع المهجور، ثم عادا إلى الوراء واستعادا خطواتهما، وبعد أن استدارا وسارا طويلاً رأيا ضوءاً من خلال الأغصان.

- قال جيرمان: جيد! ها هو ذا منزل، والناس مستيقظون بالفعل، لأن النار قد أوقدت. هل الوقت متأخر جداً؟ ولكنه لم يكن منزلاً: لقد كانت نار المبيت التي كانوا قد تركوها عند رحيلهم، والتي أوقدها النسيم من جديد... لقد ساروا لمدة ساعتين للعودة إلى حيث بدأوا.

11

تحت النجوم

- سأتخلى عن ذلك الآن!" قال جيرمان وهو يدوس بقدمه. لقد أصابتنا اللعنة، هذا أمر مؤكد، ولن نخرج من هنا حتى وضح النهار. يجب أن يكون هذا المكان متوحشاً.[34]

- تقول ماري: "هيا، هيا، دعونا لا نغضب"، ودعونا نواصل العمل. سنشعل نارًا أكبر، والطفل ملفوف جيدًا بحيث لا خطر عليه، وإذا قضينا ليلة في الخارج فلن نموت. أين خبأت العصا يا جيرمان؟ في وسط الشجيرات المقدسة، أيها الأحمق! إنه مكان مناسب للذهاب واستعادتها!

- أمسك الطفل، خذه حتى أتمكن من إزالة سريره من الأشواك، لا أريدك أن توخز يديك.

- قالت الفتاة الصغيرة الشجاعة: "لقد تم الأمر، ها هو السرير، وبضع وخزات قليلة لا تزعجني". وعادت إلى فراشها مع بيير الصغير، الذي كان نائماً جيداً

[34] ممسوس، يسكنه الشيطان.

هذه المرة لدرجة أنه لم يلاحظ شيئاً عن هذه الرحلة الجديدة. ووضع جيرمان الكثير من الحطب على النار حتى اشتعلت الغابة كلها به: ولكن ماري الصغيرة لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك، ومع أنها لم تشتك من أي شيء إلا أنها لم تستطع الوقوف على رجليها. كانت شاحبة وكانت أسنانها تصطك من البرد والضعف. فأخذها جيرمان بين ذراعيه ليدفئها، واستولى على قلبها القلق والشفقة والحنان الذي لا يقاوم وأسكت حواسها. وانفلت لسانه كما لو كان بمعجزة، وتوقف كل خجل:

قال لها: ــ إنني أحبك يا ماري، وأنا تعيس جداً أن لا أحبك. لو أردتِ أن تقبليني زوجاً لكِ لما كان هناك حما ولا أهل ولا جيران ولا مجالس تمنعني من أن أهب نفسي لكِ. أنا أعرف أنك ستسعدين أولادي، وأنك ستعلمينهم احترام ذكرى أمهم، وأن ضميري مرتاح، وأنني أستطيع أن أرضي قلبي. لطالما كنت مغرما بك، والآن أشعر بحبك لدرجة أنك لو طلبت مني أن أنفذ لك ألف أمنية لبقية حياتي، لأقسمت على ذلك في الحال. أرجوكِ انظري كم أحبكِ، وحاولي أن تنسي عمري. اعتقدي أنه من الخطأ الاعتقاد بأن رجلًا في الثلاثين من عمره كبير في السن. كما أنني في الثامنة والعشرين من عمري فقط؛ والفتاة الشابة تخشى أن تنتقد إذا ارتبطت برجل يكبرها بعشر سنوات

أو اثنتي عشرة سنة، لأن هذا ليس من عادات البلاد؛ ولكني سمعت أنهم في البلاد الأخرى لا يقلقون من ذلك؛ بل على العكس من ذلك يفضلون أن يتقدم شاب عاقل ذو شجاعة مجربة على شاب صغير قد يخرج عن السيطرة ويصبح فتى سيئاً من أن يكون موضوعاً جيداً كما كانوا يعتقدون. إلى جانب ذلك، فإن السنوات لا تجعل الرجل دائمًا كبيرًا في السن. فالأمر يعتمد على مدى قوته وصحته. عندما يكون الرجل متهالكًا من كثرة العمل والشقاء أو من سوء هو كبير في السن قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين بدلاً مني... لكنك لا تستمعين إليّ يا ماري.

- بلى يا جيرمان، أنا أصغي إليك"، أجابت ماري الصغيرة: "ولكنني أفكر فيما كانت أمي تقول لي دائماً: إن المرأة في الستين يجب أن تشفق على زوجها عندما يبلغ السبعين أو الخامسة والسبعين من عمره، ولا يعود قادراً على العمل لإطعامها. يصبح هو عاجزًا، وعليها أن تعتني به في سن تكون هي نفسها قد بدأت تحتاج إلى قدر كبير من الرعاية والراحة. هكذا ينتهي بك المطاف على خط الفقر.

- إن الآباء محقون في قولهم هذا، أوافقك الرأي يا ماري، وتابع جيرمان: ولكن في النهاية سيضحون بكل وقت الشباب، وهو أفضل الأوقات،

ليتوقعوا ما سيحدث لنا في السن التي لا نعود فيها صالحين لشيء، وحينئذ لا فرق بين أن ينتهي بنا الأمر إلى هذا الحد أو ذاك. لكنني لست في خطر الموت جوعًا في شيخوختي. فأنا في وضع يسمح لي بجمع شيء من المال، لأنني أعيش مع والد زوجتي وأعمل كثيراً ولا أنفق شيئاً. إلى جانب ذلك، سأحبك كثيرًا، كما ترى، لدرجة أن ذلك سيمنعني من أن أشيخ. يقولون أن الرجل عندما يكون سعيداً يحافظ على نفسه، وأنا أشعر أنني أصغر من باستيان لأحبك؛ لأنه لا يحبك، فهو غبي جداً، وطفولي جداً بحيث لا يستطيع أن يفهم كم أنت جميلة وطيبة ومخلوقة لكي يسعى وراءك. هيا يا ماري، لا تكرهيني، فأنا لست رجلاً سيئاً: لقد أسعدت كاثريني، وقالت أمام الله وهي على فراش الموت إنها لم تكن يوماً إلا راضية عني، وأوصتني بالزواج مرة أخرى. ويبدو أن روحها تحدثت إلى ابنها هذا المساء وهو نائم. ألم تسمع ما قاله، وكيف كان فمه الصغير يرتجف بينما كانت عيناه تنظران إلى شيء لم نستطع رؤيته! لقد كان يرى أمه، يمكنك أن تكوني متأكدة من ذلك، وهي التي جعلته يقول إنه يريدك أن تحلي محلها.

- فأجابت ماري، وكلها دهشة وتفكير عميق: "جيرمان"، "أنت تتكلم بصدق وكل ما تقوله صحيح. أنا متأكدة من أنني كنت لأحبك حباً جميلاً لو لم يزعج

ذلك والديك كثيراً: ولكن ماذا تتوقع مني أن أفعل ؟ لا أعلم بشأنك. أنا معجبة بك، ولكن على الرغم من أن عمرك لا يجعلك قبيحاً، إلا أنه يخيفني. يبدو لي أنك شيء ما بالنسبة لي، مثل العم أو الأب الروحي؛ وأنني أدين لك بالاحترام، وأنك ستأتي عليك أوقات تعاملني فيها كفتاة صغيرة وليس كزوجتك ومساوية لك. وأخيراً، قد يسخر مني أصدقائي، وعلى الرغم من أنه سيكون من السخف أن ألتفت إلى ذلك، إلا أنني أعتقد أنني سأشعر بالخجل والحزن قليلاً في يوم زفافي.

- أنت تتحدثين كطفلة يا "ماري"!

- حسناً، نعم، أنا طفلة"، قالت: "ولهذا السبب أخاف من الرجل العاقل جداً. يمكنك أن ترى أنني صغيرة جداً بالنسبة لك، بما أنك توبخني بالفعل على حديثي بدون سبب! لا يمكنني أن يكون لدي سبب أكثر مما يسمح به عمري.

- واحسرتاه، يا إلهي، كم أشفق على نفسي لكوني أخرق إلى هذا الحد، ولقولي ما أفكر فيه بسوء! ماري، أنت لا تحبينني يا ماري، هذه هي الحقيقة؛ إنك تجدينني بسيطاً جداً وثقيلاً جداً. لو كنتِ تحبينني قليلاً، لما رأيتِ عيوبي بهذا الوضوح. لكنك لا تحبينني، هذه هي الحقيقة!

- حسناً، إنها ليست غلطتي"، أجابت، وقد تألمت قليلاً لأنه لم يعد على علاقة بها؛ "أنا أبذل قصارى جهدي لأستمع إليك، ولكن كلما حاولت أكثر كلما قلّ ما في رأسي من فكرة أننا يجب أن نكون زوجاً وزوجة. لم يجب جيرمان. لقد وضع رأسه في كلتا يديه، وكان من المستحيل على ماري الصغيرة أن تعرف ما إذا كان يبكي أو عابساً أو نائماً. لقد كانت قلقة بعض الشيء لرؤيته متجهم الوجه ولا تستطيع أن تخمن ما يدور في ذهنه؛ ولكنها لم تجرؤ على التحدث إليه بعد ذلك، وبما أنها كانت مندهشة مما حدث للتو لدرجة أنها لم تكن تريد العودة إلى النوم، فقد انتظرت بفارغ الصبر حتى طلوع النهار، وظلت ترعى النار وتعتني بالطفل الذي بدا أن جيرمان لا يتذكره. ومع ذلك، لم ينم جيرمان؛ ولم يفكر في مصيره أو يخطط للمستقبل. الشجاعة، ولا خطط للإغواء. كان يعاني، كان لديه جبل من المتاعب على قلبه. كان يتمنى لو أنه مات. وبدا له أن كل شيء كان لا بد أن يسوء، ولو كان في وسعه أن يبكي لما فعل ذلك بفتور. ولكن كان هناك شيء من الغضب على نفسه ممزوجاً بحزنه، فاختنق دون أن يكون قادراً أو راغباً في الشكوى. ولما أقبل ضوء النهار وأصوات الريف تعلن ذلك لجيرمان، أخرج وجهه من بين يديه ونهض واقفاً. ورأى أن ماري الصغيرة لم تكن قد نامت هي الأخرى،

ولكنه لم يعرف ماذا يقول لها ليظهر لها قلقه. كان محبطاً تماماً. أخفى حقيبة "الرمادية" في الشجيرات مرة أخرى، وأخذ حقيبتها على كتفه وأمسك ابنه من يده: "الآن يا ماري"، قال، سنحاول إنهاء رحلتنا. هل تريدين أن آخذك إلى أورمو؟

- " أجابت: "سنخرج من الغابة معًا، وعندما نعرف أين نحن، سيذهب كل منا في طريقه. لم يجب جيرمان. وكان قد تألم لأن الفتاة لم تطلب منه أن يصطحبها إلى أورمو، ولم يدرك أنه عرض عليها ذلك بلهجة يبدو أنها كانت تستفزه للرفض. وكان الحطاب الذي التقيا به بعد مائتي خطوة قد وضعهما على الطريق الصحيح، وأخبرهما أنه بعد اجتياز المرج الكبير لم يكن عليهما إلا أن يسلكا طريقين أحدهما إلى الأمام والآخر إلى اليسار ليصلوا إلى مسكنهما المختلف، وكانا فوق ذلك متقاربين جداً بحيث يمكن رؤية منازل فورش بوضوح من مزرعة أورمو، والعكس بالعكس. ثم بعد أن شكروا الحطاب ومروا به، ناداهم ليسألهم عما إذا كانوا قد فقدوا حصاناً.

- قال لهم: "لقد وجدت فرسًا رمادية جميلة في فناء منزلي، وقد يكون الذئب قد أجبرها على اللجوء إليه. ونبحت كلابي في الليل[35]، وعند الفجر رأيت

[35] تحته خط جورج ساند، للإشارة إلى الطابع الباتواوي للتعبير، وهو ما يعادل "نبح طوال الليل".

الفرس تحت سقيفتي؛ وما زالت هناك. دعنا نذهب، و إذا تعرفت عليها فخذها بعيداً.

12

لبؤة[36] القرية

غير أنه لما أصلح ما أفسدته الرحلة من اضطراب في ثيابه وفي عتاد حصانه، ولما ركب الرمادي ودل على الطريق إلى فوركس ظن أن لا رجعة إلى الوراء، وأن ليلة الاضطراب هذه يجب أن تنسى كحلم خطير. ووجد الأب ليونار واقفا على عتبة بيته الأبيض جالساً على مقعد خشبي جميل مطلي بالسبانخ الأخضر. وكانت هناك ست درجات حجرية مرتبة على شكل درج، مما جعل من الواضح أن للمنزل قبو.[37] وكان جدار الحديقة وحظيرة الماعز[38]مغطى بالجير والرمل. كان منزلاً جميلاً؛ وكان من الصعب أن يُظن أنه منزل برجوازي. وجاء حماه المستقبلي لمقابلة جيرمان، وبعد أن سأله لمدة

[36] في منتصف القرن التاسع عشر، كان يُطلق على الشخصيات الاجتماعية "الأسود" و"اللبؤات". وعندما يُطلق هذا اللقب على ابنة الأب ليونارد، فإن له معنى مزدوجاً: فالأرملة غيران تلعب دور أرملة القرية الأنيقة وهي آكلة الرجال.

[37] في الريف، المنزل المبني على قبو هو منزل مبني على قبو وهو منزل جيد البناء، غني بالفعل، على عكس الأكواخ المبنية من القش المبنية على أرض مضروبة.

[38] أرض مزروعة بالقنب.

خمس دقائق عن عائلته كلها، أضاف العبارة المعتادة في سؤال من تقابلهم بأدب عن الغرض من رحلتهم: إذن جئت تتجول هنا؟

- فأجاب الحراث: لقد جئت لأراك، ولأقدم لك هذه الهدية الصغيرة من الطرائد نيابة عن والد زوجتي، ولأخبرك نيابة عنه أيضاً بأنك يجب أن تعرف الغرض من زيارتي.

- آه! آه!" قال الأب ليونارد ضاحكاً وهو يصفق ببطنه الممتلئ: "أرى، أسمع، أنا هناك! وغمز وأضاف لن تكون الوحيد الذي يثني عليك أيها الشاب. هناك بالفعل ثلاثة في المنزل ينتظرون مثلك. لن أطرد أحداً، وسأكون محرجاً جداً من الاتفاق أو الاختلاف مع أي شخص، لأنهم جميعاً أناس طيبون. ومع ذلك، وبسبب الأب موريس وجودة الأرض التي تزرعها، فإنني أفضل أن تكون أنت. لكن ابنتي قد بلغت سن الرشد وهي سيدة أملاكها، لذا ستفعل ما تراه الأفضل. ادخل وعرّف عن نفسك؛ آمل أن تكون قد حصلت على الرقم الصحيح!

- فأجاب "جيرمان" الذي كان مندهشًا جدًّا أن يجد نفسه زائدًا[39] حيث كان يتوقع أن يكون وحده. لم أكن أعلم أن ابنتك قد تقدم لها خاطبون بالفعل، ولم آتِ لأنافس الآخرين.

- فإن كنت تظن أن مجيئك متأخرًا"، أجاب الأب ليونار دون أن يفقد روح الدعابة التي كان يتمتع بها: "إن كنت تظن أن ابنتي غير مستعدة لأنك تأخرت في المجيء، فأنت مخطئ جدًا يا بني."

من المؤكد أن كاثرين ستكون نقطة جذب للعرائس، وستكون مدللة للاختيار. ولكن اذهب إلى المنزل، أقول لك، ولا تفقد الأمل. إنها امرأة تستحق القتال من أجلها ودفع جيرمان من كتفيه بمرح خشن: (هيا يا كاثرين) وصاح وهو يدخل البيت: إن هذه الطريقة المرحة والوقحة في تقديم الأرملة، في حضور خاطبيها الآخرين، قد أربكت الحراث وأزعجته. وشعر بالحرج وبقي بضع لحظات دون أن يجرؤ على رفع عينيه إلى المرأة الجميلة وحاشيتها. كانت الأرملة "غيران" حسنة البنية ولا تنقصها النضارة. غير أن تعابير وجهها وطريقة لبسها أثارت استياء جيرمان في البداية. فقد كانت تبدو جريئة ومعتدة بنفسها، ولم يكن لقرونها المزركشة بصف ثلاثي من الدانتيل

[39] يفوقونك عدداً.

ومئزرها الحريري ومنديلها الأشقر[40] الأسود علاقة تذكر بمظهرها. مع الفكرة التي كوّنها عن أرملة جادة ومنظمة. فطريقة لبسها وأسلوبها السهل جعله يظنها عجوزاً وقبيحة مع أنها لم تكن كذلك. وظن أن هذه الزينة الجميلة والأخلاق المبهجة تلائم سن ماري الصغيرة وعقلها الرقيق، ولكن هذه الأرملة كانت ثقيلة الظل وعشوائية المزاح، وكانت ترتدي زينتها الجميلة دون تمييز. وكان الخاطبون الثلاثة جالسين على مائدة محملة بالنبيذ واللحوم التي كانت موجودة بشكل دائم لهم طوال صباح الأحد؛ لأن الأب ليونارد كان يحب أن يتباهى بثروته، ولم تكن الأرملة أيضاً تخجل من عرض أوانيها الفخارية الفاخرة وحفظ المائدة مثل صاحبها. كان جيرمان بسيطاً وواثقاً كما كان، وكان يلاحظ الأمور بنفاذ بصيرة معين، ولأول مرة من حياته كان يقف في موقف دفاعي أثناء الشرب. وكان الأب ليونار قد أرغمه على أن يأخذ مكانه مع منافسيه، وأجلسه في مقابله، وعامله بأحسن ما يكون من المعاملة واعتنى به عناية فائقة. وكانت هدية اللعبة، على الرغم من الخرق الذي أحدثه جيرمان فيها على حسابه الخاص، لا تزال غزيرة بما فيه الكفاية

[40] نوع من الدانتيل مصنوع في الأصل من الحرير الطبيعي غير مصبوغ. وبالتالي فإن "الأشقر" هو اسم يشير إلى نوع من الدانتيل. ويمكن بالطبع أن يكون مصبوغاً باللون الأسود. يلخص التأثير المضاد لـ "شقراء سوداء" كل ما هو خاطئ في هذه الأرملة التي تلبس أكثر من اللازم. .

لإحداث تأثير. وبدت الأرملة متأثرة به ونظر إليه الخاطبون بازدراء. شعر جيرمان بعدم الارتياح في هذه الصحبة ولم يأكل بشراهة. وسخر الأب ليونارد من ذلك.

- قال: "أنت حزين جداً وأنت عابس على كأسك. يجب أن لا تدع الحب يفسد شهيتك، لأن الشهم بمعدة خاوية لا يستطيع أن يفكر في كلمات جميلة مثل شخص صفا ذهنه بقليل من النبيذ.

- كان جرمان يشعر بالخجل لأنه كان من المفترض أن يكون عاشقاً بالفعل، والنظرة المهذبة التي ارتسمت على وجه الأرملة التي خفضت عينيها وابتسمت كمن يثق من موقفها، جعلته يريد أن يحتج على هزيمته المفترضة؛ ولكنه خشي أن يبدو غير متحضر فابتسم وصبر. بدا له أن عشاق الأرملة كانوا ثلاثة من الغوغائيين. كان يجب أن يكونوا أغنياء جداً حتى تعترف هي بادعاءاتهم. كان أحدهم فوق الأربعين وبديناً تقريباً مثل الأب ليونار؛ وكان الآخر أعور وكان يشرب كثيراً حتى الثمالة؛ وكان الثالث شاباً جميلاً جداً؛ لكنه أراد أن يكون ظريفاً وقال كلاماً مسطحاً لدرجة أنه كان مثيراً للشفقة. ومع ذلك ضحكت الأرملة كما لو كانت معجبة بكل هذا الهراء، وفي ذلك ما يدل على أنها لم تظهر أي ذوق. وظن جرمان في بادئ الأمر أنها كانت

ترفع شعرها؛ ولكنه ما لبث أن أدرك أنه هو نفسه كان يتلقى تشجيعاً خاصاً من جانبها، وأنها تريده أن ينغمس في نفسه أكثر. وكان هذا سبباً في أن يشعر بأنه أكثر برودة وجدية. وحانت ساعة القداس، فنهض الجميع من المائدة ليذهبوا معًا. وكان عليهم أن يصلوا إلى "ميرس"، أي على بعد نصف ميل تقريبا، وكان جيرمان متعباً جداً لدرجة أنه كان يود كثيراً لو كان لديه وقت ليأخذ قيلولة قبل ذلك؛ ولكنه لم يكن من عادته أن يفوت القداس، فانطلق مع الآخرين. كانت الطرق مزدحمة بالناس، وكانت الأرملة تمشي في زهو، يرافقها خطباؤها الثلاثة، تارة تمد ذراعها إلى أحدهم، وتارة إلى الآخر، وهي منتفخة الخدين رافعة رأسها. وكانت تود كثيراً أن تتباهى بالرابع أمام المارة؛ ولكن جيرمان وجد من السخف أن يجرها هكذا، على مرأى ومسمع من الجميع، أن تبقى على مسافة مناسبة وهي تدردش مع الأب ليونار، وتجد طريقة تلهيه وتشغله بما فيه الكفاية حتى لا يبدو أنها جزء من العصابة.

13

المعلم

عندما وصلا إلى القرية، توقفت الأرملة في انتظارهما. كانت تريد بالتأكيد أن تدخل مع جميع قومها، ولكن جيرمان رفض لها هذا الرضا، وترك الأب ليونار وتوجّه إلى عدة أشخاص من معارفه ودخل الكنيسة من باب آخر. انزعجت الأرملة. وبعد انتهاء القداس ظهرت في كل مكان منتصرة على العشب حيث كانوا يرقصون، وافتتحت الرقص مع عشاقها الثلاثة على التوالي. وكان جيرمان يراقبها ويعتقد أنها كانت ترقص رقصاً جيداً ولكن بتكلف.

- قال ليونار وهو يربت على كتفه: (حسناً!) (ألن تجعل ابنتي ترقص؟ أنت خجول جداً!

- أجاب الحراث: "أنا لم أرقص منذ أن فقدت زوجتي".

- حسناً، بما أنك تبحث عن أخرى، فقد انتهى الحداد في قلبك كما انتهى في ملابسك.

- هذا ليس سبباً يا أبت ليونارد، كما أنني أعتقد أنني كبرت في السن، ولم أعد أحب الرقص.

- وواصل ليونار حديثه وهو يجذبه إلى مكان منعزل: اسمعني يا بني، لقد انزعجت عندما دخلت منزلي لترى الساحة وقد أحاط بها المحاصرون بالفعل، وأرى أنك فخور جداً؛ ولكن هذا غير معقول يا بني. لقد اعتادت ابنتي أن تتودد إليك، ولا سيما في السنتين اللتين انقضتا منذ أن أنهت حدادها، وليس من حقها أن تقابلك. - لقد مضى عامان منذ كان من المقرر أن تتزوج ابنتك، وهي لم تحسم أمرها بعد؟

- إنها لا تريد الاستعجال، وهي على حق. على الرغم من أن وجهها مستيقظ وقد لا يبدو لك أنها تفكر كثيراً، فذلك لأنها ليست في عجلة من أمرها. امرأة على قدر كبير من الرشد، وتعرف جيداً ما تفعل.

- قال جرمان ببراعة: (لا أظن ذلك) قالها جرمان ببراعة: (لا أظن ذلك لأن لها ثلاثة عشاق يتبعونها، ولو كانت تعرف ما تريد لكان منهم اثنان على الأقل ستجدهما أكثر من اللازم وستطلب منهما البقاء معها.

- لماذا تفعل ذلك؟ أنت لا تفهم يا جيرمان أكاد أجزم أنها لا تريد الرجل العجوز ولا الرجل الأعور ولا الشاب، ولكن إذا هي أرسلتهم بعيداً فسيظن الناس أنها تريد أن تظل أرملة، ولن يأتي أحد غيرها.

- آه، نعم، هذه بمثابة علامة!

- كما تقولين ما العيب في ذلك، إذا كان ذلك يناسبهم؟

- لكل ذوقه الخاص! - يمكنني أن أرى أنها لن تكون لك. ولكن دعنا نرى، يمكننا أن نتوصل إلى اتفاق، لنفترض أنك تفضل ذلك: يمكننا أن ندعك تأخذ المكان.

- نعم، لنفترض!

- هذا يعتمد عليك، على ما أعتقد، إذا كنت تعرفين كيف تتحدثين وتقنعين. لقد فهمت ابنتي جيداً حتى الآن أن أفضل وقت في حياتها هو أن تقضيه في التودد إليها، وهي لا تشعر بالعجلة في أن تصبح خادمة لرجل واحد، بينما تستطيع أن تكون خادمة لعدة رجال. فما دامت اللعبة ترضيها فبإمكانها أن تسلي نفسها؛ أما إذا أرضيتها أنت أكثر من اللعبة، فيمكن أن تتوقف اللعبة. كل ما عليك فعله هو أن لا تنزعج. عد إليها كل يوم أحد، واجعلها ترقص،

وليكن معلوماً أنك تنضم إلى الصفوف، و إذا وجدوك أكثر لطفاً وأفضل علماً من الآخرين، فلا شك أنهم سيقولون لك ذلك في يوم من الأيام.

- اعذرني أيها الأب ليونارد، إن لابنتك الحق في أن تفعل ما يحلو لها، وليس من حقي أن ألومها. لو كنت مكانها لتصرفت بشكل مختلف، لكنت تصرفت بشكل مختلف، لكنت أكثر صدقاً ولما أهدرت وقت الرجال الذين ربما لديهم أشياء أفضل من التسكع مع امرأة تسخر منهم. ولكن، في النهاية، إذا كانت تجد المتعة والسعادة في ذلك، فهذا ليس من شأني. الشيء الوحيد الذي يجب أن أخبرك به هو هذا لقد كنت محرجاً بعض الشيء من أن أخبرك منذ الصباح، لأنك بدأت بسوء فهمك لنواياي، ولم تمهلني لأجيبك: لذلك أنت تعتقد ما ليس بصحيح. يجب أن تعلم أنني لم آت إلى هنا لأطلب من ابنتك الزواج مني، بل لأشتري زوجاً من الثيران التي تريد أن تأخذها إلى المعرض في الأسبوع القادم، والتي يعتقد والد زوجتي أنها تناسبه.

- لقد فهمت يا جيرمان"، أجاب ليونارد بهدوء شديد، "لقد غيرت رأيك عندما رأيت ابنتي مع عشاقها. الأمر عائد إليك. يبدو أن ما يجذب البعض ينفر البعض الآخر، ومن حقك أن تنسحب بما أنك لم تتكلم بعد. إذا كنت جاداً

في شراء ثيراني، فتعال وانظر إليها في المرعى وسنتحدث في الأمر، وسواء أتممنا الصفقة أم لا، ستأتي لتناول العشاء معنا قبل أن تعود.

- قال جيرمان: لا أريدك أن تبتعد عن طريقك، فقد يكون لديك عمل هنا؛ أما أنا فقد مللت من مشاهدة الرقصات وعدم القيام بأي شيء. سأذهب لرؤية حيواناتك وسأجدك في المنزل بعد قليل. وبذلك، انسل جيرمان مبتعداً متجهاً إلى المروج، حيث كان ليونار قد أراه بالفعل بعض ماشيته من بعيد. وكان صحيحاً أن الأب موريس قد اشترى بعضاً منها، واعتقد جيرمان أنه لو عاد بزوج جيد من الثيران ذات الأسعار المعتدلة لكان من الأفضل أن يغفر له أنه قد فاته عمداً الهدف من رحلته. سار بسرعة وسرعان ما وجد نفسه على مسافة قصيرة من أورمو. وشعر بالحاجة إلى الذهاب لتقبيل ابنه، بل ولرؤية ماري الصغيرة مرة أخرى، على الرغم من أنه كان قد فقد الأمل ونفى فكرة أن يدين بسعادته لها. كل ما رآه وسمعه للتو، هذه المرأة المغرورة، وهذا الأب الماكر وضيق الأفق، الذي كان يشجع ابنته على عادات الكبرياء والعقوق، وهذا الترف في المدن الذي بدا له أنه إهانة لكرامة أخلاق الريف، وهذا الوقت الذي أضاعه في الكلام الفارغ والأحاديث الحمقاء، وهذا إن كل ما عاناه من ملل وارتباك في الساعات القليلة الماضية جعل جيرمان يرغب في أن يكون

مع طفلته وجارته الصغيرة. ولولا أنه لم يكن مغرماً بهذه الأخيرة لظل يبحث عنها ليشغل نفسه ويعيد معنوياته إلى مستواها المعهود. ولكنه بحث عبثاً في المروج المحيطة فلم يجد ماري الصغيرة ولا بيير الصغير، فقد كانت ساعة خروج الرعاة إلى الحقول. وكان هناك قطيع كبير في أحد الحقول[41] فسأل صبيا صغيرا كان يرعاه إن كانت هذه الأغنام من مزرعة أورمو.

قال الصبي: "نعم". - هل أنت راعي الغنم؟ هل يحرس الصبيان حيوانات الصوف في المزارع المستأجرة في منطقتك؟

- لا، ليسا كذلك. أنا أحتفظ بهم اليوم لأن الراعية قد غادرت: لقد كانت مريضة.

- لكن أليس لديك راعية جديدة وصلت هذا الصباح؟

- أوه نعم، لقد غادرت أيضاً.

- ماذا تعني بأنها رحلت؟ ألم يكن معها طفل؟

- نعم، طفل صغير كان يبكي. كلاهما غادرا بعد ساعتين.

- رحلا إلى أين؟

- من حيث أتوا على ما يبدو لم أسألهم.

[41] Chaume، الحقل الذي لا تزال فيه القشور قائمة، الأرض التي تُركت بورًا.

- لكن لماذا رحلا؟" قالها جيرمان وهو يزداد قلقاً أكثر فأكثر.

- هل أعرف؟

- ألم نتفق على السعر؟ لا بد أنه كان شيئاً متفقاً عليه مسبقاً.

- لا أستطيع أن أخبرك. رأيتهم يأتون ويذهبون، هذا كل ما في الأمر. توجه جيرمان إلى المزرعة واستجوب عددا من المزارعين المستأجرين. لم يتمكن أحد من تفسير ما حدث، لكن كان من الواضح أن الفتاة غادرت بعد أن تحدثت إلى المزارع دون أن تنبس ببنت شفة، وأخذت معها الطفل الباكي.

- صرخ جيرمان الذي اشتعلت عيناه بالدموع: "هل أساءوا معاملة ابني؟ - هل كان ابنك؟ كيف جاء مع هذه الفتاة الصغيرة؟ من أين أنت وماذا يسمونك أنت؟ ورأى جرمان أن أسئلته كانت ستجاب على أسئلته بأسئلة أخرى حسب عادات البلد، فضرب برجله بفارغ الصبر وطلب أن يتحدث إلى السيد. لم يكن السيد هناك: لم يكن من عادته أن يبقى طوال اليوم عندما يأتي إلى المزرعة. فقد كان على ظهر حصانه، وكان قد غادر إلى مزرعة أخرى لا يعلم أحد أي مزرعة.

- قال جيرمان في نوبة من القلق: (ولكن في النهاية) (ألا تستطيع أن تعرف سبب رحيل هذه الفتاة الصغيرة؟ وتبادل المزارع المستأجر ابتسامة غريبة مع

زوجته، ثم أجاب بأنه لا يعرف شيئاً، أن هذا ليس من شأنه. ولم يجد جيرمان سوى أن الفتاة والطفل قد ذهبا إلى فورش. فهرع إلى فورش: ولم تكن الأرملة وعشاقها قد عادوا، ولا الأب ليونار. وأخبرته الخادمة أن فتاة صغيرة وطفلاً جاءا يسألان عنه، ولكن بما أنها لا تعرفهما لم ترغب في استقبالهما ونصحتهما بالذهاب إلى ميرس.

- فقال لها جيرمان مداعباً: (ولماذا رفضت استقبالهما؟) فقالت له مداعبة: (لماذا رفضت استقبالهما؟ هل الناس في هذه البلاد مرتابون إلى هذا الحد حتى لا يفتحوا الباب لجيرانهم؟

- آه يا سيدي!" أجابت الخادمة: "في بيت غني كهذا، يحق لك أن تكون على حذر. أنا مسؤولة عن كل شيء عندما يكون الأسياد غائبين، ولا يمكنني أن أفتح الباب لأي شخص يدخل.

- إنها عادة قبيحة، وأنا أفضل أن أكون فقيرا على أن أعيش في خوف كهذا. وداعاً يا فتاة، وداعاً لبلدك القبيح! قام بالاستفسار في المنازل المحيطة. وبما أن الصبي كان قد غادر "بيلير" دون سابق إنذار، وبدون أي ينظف نفسه، وكان قميصه ممزقاً بعض الشيء، وجلد الحمل الصغير على جسده؛ وبما أن ماري الصغيرة كانت، لسبب وجيه، ترتدي ملابس رديئة جداً في جميع

الأوقات، فقد اعتبروا متسولين. وكانا قد عرض عليهما بعض الخبز؛ وقبلت الفتاة الصغيرة قطعة للطفل الجائع، ثم غادرا معه مسرعين إلى الغابة. فكر جيرمان للحظة، ثم سأل ما إذا كان المزارع من "أورمو" قد جاء إلى شوكة الغابة.

فقيل له: ــ"نعم، لقد مرّ بعد الفتاة الصغيرة بقليل".

- هل ركض خلفها؟

- آه، إذن أنت تعرفه." ضحك صاحب النزل المحلي الذي كان يتحدث إليه. نعم، بالطبع؛ إنه رجل جامح عندما يتعلق الأمر بمطاردة الفتيات. ولكني لا أعتقد أنه أمسك بتلك الفتاة؛ على الرغم من أنه لو كان قد رآها في النهاية...

- هذا يكفي، شكراً لك! وطار بدلاً من أن يركض إلى إسطبل ليونارد. وألقى العصا على "الرمادية"، وقفز عليها وانطلق بأقصى سرعة في اتجاه غابة شانتيلوب. قفز قلبه من القلق والغضب، وتصبب العرق من جبينه. جعل جوانب الرمادية تنزف دماً، لكنها عندما رأت نفسها في طريقها إلى إسطبلها لم تتردد في الركض.

14

العجوز

وسرعان ما وجد جيرمان العجوز نفسه في المكان الذي قضى فيه ليلته على حافة البركة. كانت النار لا تزال مشتعلة؛ وكانت هناك امرأة عجوز تجمع ما تبقى من الحطب الميت الذي كدسته ماري الصغيرة هناك. توقف جيرمان ليسألها. كانت صماء، قالت: "نعم يا ولدي"، "هنا بركة الشيطان. إنه مكان سيئ، ولا يجب أن تقترب منه دون أن ترمي ثلاثة أحجار فيه بيدك اليسرى وتضع علامة الصليب باليمنى: إنها تبعد الأرواح. وإلا فإن سوء الحظ يصيب من يمشي حوله.

- قال جرمان وهو يقترب منها ويصرخ بأعلى صوته:

- ألم تري فتاة وطفلاً يمران في الغابة؟

- قالت العجوز: "نعم": "طفل صغير غرق هناك! فارتجف جيرمان من رأسه إلى قدميه؛ ولكن لحسن الحظ، أضافت العجوز .

- منذ زمن بعيد، وفي ذكرى الحادثة، غُرس هناك صليب جميل، ولكن في إحدى الليالي العاصفة ألقت به الأرواح الشريرة في الماء. لا يزال بإمكانك رؤية جزء منه. إذا كان من سوء حظ شخص ما أن يتوقف هنا ليلاً، فمن المؤكد أنه لن يخرج أبدًا قبل ضوء النهار. ومهما مشى، فقد يقطع مائتي فرسخ في الغابة وينتهي به المطاف في نفس المكان. وعلى الرغم من نفسه كان الحراث قد صدمه ما كان يسمعه، واستولت على رأسه فكرة سوء الحظ الذي كان سيصيبه ليكمل تبرير تأكيدات العجوز، حتى أنه شعر بالبرد في جميع أنحاء جسمه. وبعد أن يئس من الحصول على أي معلومات أخرى، امتطى فرسه من جديد وانطلق مر على طول الغابة، ينادي بيير بكل ما أوتي من قوة، ويصفر ويضرب بسوطه ويكسر الأغصان ليملأ الغابة بصوت مسيره، ثم يصغي ليرى إن كان هناك من يجيبه؛ ولكنه لم يسمع إلا أجراس الأبقار المبعثرة في الشجيرات وصيحات الخنازير المتوحشة التي كانت تتنافس على الغلة. وأخيراً سمع جيرمان من خلفه صوت حصان يركض في أثره، وصاح به رجل في منتصف العمر، أسمر الشعر، قوي البنية ويرتدي ملابس نصف برجوازية ليقف. لم يكن جيرمان قد رأى هذا الفلاح من أورمو

من قبل، ولكن غريزة الغضب جعلته يحكم في الحال أنه هو. فالتفت حوله وحدق فيه من رأسه إلى قدميه، وانتظر أن يسمع ما يقوله.

- قال الفلاح وهو يتظاهر باللامبالاة رغم ما بدا عليه من تأثر واضح، ألم تر فتاة صغيرة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة تمر من هنا ومعها صبي صغير؟

- فأجابه جيرمان دون أن يحاول إخفاء غضبه: "وماذا تريد منه؟

- يمكنني أن أخبرك أن هذا ليس من شأنك يا صديقي! ولكن بما أنه لا داعي لأن أخفي عليك أنها راعية استأجرتها لمدة عام دون أن أعرفها... وعندما رأيتها وقد وصلت بدت لي صغيرة السن وضعيفة جداً على عمل المزرعة. فشكرتها ولكني كنت أريد أن أدفع نفقات رحلتها الصغيرة، فغادرت غاضبة وأنا غافل عنها ... لقد كانت في عجلة من أمرها حتى أنها نسيت بعض متاعها وحقيبتها التي لا تحوي الكثير، وأنا واثق من ذلك؛ بضعة قروش على الأرجح!... ولكن في النهاية، وبما أنني كنت مضطراً للمرور من هنا، رأيت أن أقابلها وأعطيها ما نسيته وما أنا مدين لها به. كان جيرمان صادقاً جداً ولم يتردد عندما سمع هذه القصة، إن لم يكن من المحتمل جداً أن تكون محتملة على الأقل. وثبت بنظرة ثاقبة إلى المزارع الذي كان يؤيد هذا التحقيق بقدر

كبير من الوقاحة أو الصراحة. قال جيرمان في نفسه: (أريد أن أصل إلى حقيقة الأمر)، ثم كتم سخطه وقال: (إنها إحدى فتياتنا) ثم قال: سأذهب لأخذها. تعرف، لا بد أنها هنا في الجوار... دعنا نمضي قدماً معاً... سنجدها على الأرجح.

- "أنت على حق" قال المزارع. دعنا نمضي قدماً... ومع ذلك، إذا لم نجدها في نهاية الجادة، فسوف أستسلم... إذ يجب أن أسلك الطريق إلى "أردنتس". "أوه!" فكر الحراث، "لن أتركك!" حتى لو اضطررت للذهاب معك حول "بركة الشيطان" لمدة أربع وعشرين ساعة!

- انتظر!" قال جيرمان فجأة، وهو يحدق في كتلة متحركة ومضطربة على غير عادتها: "قف! بيتي بيير، هل هذا أنت يا ولدي؟ فقفز الطفل كالغزال، وقد عرف صوت أبيه، ولكنه عندما رآه في صحبة المزارع، توقف كأنه خائف وظل حائراً.

- وأين ماري الصغيرة؟

- إنها هناك مختبئة لأنها خائفة من ذلك الرجل الأسود القبيح، وكذلك أنا!

- لا تقلق، أنا هنا... ماري! ماري! هذا أنا! زحفت ماري نحوه، وما إن رأت جيرمان الذي كان المزارع يتبعه عن كثب حتى ركضت نحوه وتعلقت به كما تتعلق الابنة بأبيها:

ــ (آه يا جيرمان الشجاع، قالت: أنت ستدافع عني، لست خائفة معك) ارتجف جيرمان. ونظر إلى ماري: لقد كانت شاحبة، وقد مزقت الأشواك ثيابها حيث كانت تركض في الغابة كالغزال الذي يطارده الصيادون. لكن لم يكن هناك خجل أو يأس على وجهها.

- قال لها وهو لا يزال يراقب ملامحها: "سيدك يريد أن يتحدث إليك". - سيدي؟" قالت بفخر: "هذا الرجل ليس سيدي ولن يكون أبداً! إنه أنت، جيرمان، الذي هو سيدي. أريدك أن تعيدني مع أنت... !لن أكون ذا فائدة لك تقدم المزارع متظاهراً بنفاد صبره قليلاً.

- قال: "مرحباً أيتها الصغيرة، لقد نسيت شيئاً هنا وسأعيده لك.

- أجابت ماري الصغيرة: (كلا يا سيدي)، لم أنسَ شيئاً، وليس لدي ما أطلبه منك...

- قال المزارع: "اسمعيني، لدي شيء أريد أن أقوله لك! تعالي!... لا تخافي... كلمتان فقط...

- يمكنك أن تقولها بصوت عالٍ... ليس لدي أسرار عنك.

- على الأقل تعالي وخذي نقودك !

- نقودي؟ أنت لا تدين لي بشيء، الحمد لله!

- لقد شككت في ذلك"، قالها جيرمان بصوت شبه مرتفع؛ "ولكن لا يهم يا ماري... استمعي إلى ما سيقوله لكِ... لأنني أريد أن أعرف. يمكنك أن تخبريني بعد ذلك فلدىّ أسبابي لذلك اذهبي إلى حصانه... لن أدعك تغيبي عن ناظري. وتقدمت ماري ثلاث خطوات نحو الفلاح الذي قال لها وهو ينحني على حافة سرجه، وخفض صوته:

ــ أيتها الفتاة الصغيرة، هذا "اللويز الذهبي" لك، لن تقولي شيئاً، هل تسمعين؟ سأقول فقط أنني اعتقدت أنك ضعيفة جداً للعمل في مزرعتي... ولا تذكري ذلك مرة أخرى سآتي لرؤيتك في أحد هذه الأيام، وإذا لم تقولي شيئاً سأعطيك شيئاً آخر... وبعد ذلك، إذا كنت أكثر تعقلاً، فما عليك إلا أن تتكلمي: سآخذك معي إلى البيت، أو سأذهب لأتحدث معك في الظل في المروج. ما الهدية التي تريدني أن أحضرها لك؟

- هذه يا سيدي هي الهدية التي سأعطيك إياها!" فأجابت ماري الصغيرة بصوت عالٍ، وهي ترمي في وجهه باللويز الذهبي وبقسوة في ذلك. أشكرك

جزيل الشكر، وأتوسل إليك عندما تعود إلى منزلنا أن تخبرني: سيذهب جميع الأولاد في منزلنا للترحيب بك، لأننا في منزلنا نحب حقاً البرجوازيين الذين يريدون أن يقصوا القصص على الفتيات المسكينات! سترى، سنكون في انتظارك.

- أنت كاذبة وحمقاء!" قال المزارع الغاضب رافعاً عصاه وملوحاً بها في جو من التهديد، إنكم تريدون منا أن نصدق ما ليس بصحيح، ولكنكم لن تنالوا مني أي مال: نحن نعرف أمثالك! وتراجعت ماري إلى الوراء خائفة، ولكن جيرمان أمسك بحصان المزارع وهزه بقوة وقال:

ــ لقد فهمنا الآن، ورأينا ما الأمر؟ انزل يا رجل، انزل ودعنا نتحدث! ولم يبال الفلاح أن يبدأ عراكاً، فاندفع بحصانه ليحرر نفسه، وحاول أن يضرب بعصاه يد الحراث ليفلت من يده؛ ولكن جرمان تفادى الضربة، وأمسك برجله وألقى به عن حصانه وجعله يسقط على الأشجار اليابسة حيث أوقعه أرضاً، ومع ذلك فقد نهض الفلاح على قدميه ودافع عن نفسه بقوة. وعندما أسقطه تحته: قال جيرمان "أيها الرجل القاسي!" "يمكنني أن أضربك لو أردت ذلك! ولكنني لا أحب أن أؤذيك، و إلى جانب ذلك، لا يوجد تصحيح من شأنه أن يصلح ضميرك... ومع ذلك، فإنك لن تتحرك من هنا إلا بعد أن تتوسل إلى

هذه الفتاة على ركبتيك لكي تسامحك. أراد المزارع، الذي كان يعرف مثل هذه الأشياء، أن يسخر من هذا الأمر. فزعم أن خطيئته لم تكن خطيرة إلى هذا الحد، لأنها لم تكن إلا مجرد كلمات، وأنه على استعداد أن يطلب الصفح بشرط أن يقبل الفتاة وأن نذهب لنشرب كأساً من النبيذ في الحانة التالية، وأن نترك كل منا صديقاً صالحاً.

- فأجابه جيرمان وهو يدفعه على وجهه على الأرض: (أنت تحزنني!) وأنا لا أطيق الانتظار حتى أرى النظرة السيئة على وجهك. خذ، احمر خجلاً إن استطعت، وحاول أن تسلك طريق "الأفرونتو"[42] أي المواجهة عندما تمر بمنزلنا. ثم التقط عصا الفلاح المقدسة، وكسرها على ركبته ليريه قوة معصمه، ورمى القطع بازدراء. ثم أخذ ابنه في إحدى يديه وماري الصغيرة في اليد الأخرى، وانصرف وهو يرتجف من السخط.

[42] "هذا هو الطريق الذي يؤدي بعيدًا عن الشارع الرئيسي عند مدخل القرى ويمر بمحاذاتها من الخارج. ومن المفترض أن يسلكه الناس الذين يخشون أن يتلقوا بعض الإهانات المستحقة لتجنب أن يراهم أحد". (ملاحظة لجورج ساند).

15

العودة إلى المزرعة

بعد ربع ساعة عبروا المستنقع. وساروا على طول الطريق الرئيسي، وكانت الفرس الرمادية تصهل عند كل شيء تصادفه. أخبر بيتي بيير والده بما استطاع أن يفهمه عما حدث.

- قال: "عندما وصلنا جاء ذلك الرجل ليتحدث إلى ماري[43] في حظيرة الغنم التي كنا فيها على الفور، لنرى الغنم الجميلة. كنت قد صعدت إلى الحظيرة لألعب، ولم يرني ذلك الرجل. فسلّم على خاصتي ماري، قبّلها. - قال جيرمان وهو يرتجف من الغضب: "هل سمحتِ لنفسك بأن تقبليه يا ماري؟

- لقد ظننت أن ذلك كان عملاً من أعمال الصدق، وعادة من عادات المكان عند قدوم الناس، كما أن الجدة في بلادكم تقبل الفتيات الصغيرات اللاتي يدخلن في خدمتها، لتظهر لهن أنها تتبناهن وأنها ستكون لهن كالأم.

[43] أكد جورج ساند على أنها تعابير طفولية خاصة ببيتي بيير. تم بناء رو اية الطفل بأكملها بلغة طفولية وشعبية.

- ثم قال بيتي بيير الذي كان فخوراً بمغامرة يحكيها: (لقد قال لك ذلك الرجل شيئاً بذيئاً قلت لي ألا أكرره أو أتذكره: لذلك سرعان ما نسيته. ومع ذلك، إذا كان أبي يريدني أن أخبره ما كان...

- لا يا بيير، لا أريد أن أسمعه، ولا أريدك أن تتذكره أبداً. - في هذه الحالة، سأنسى ذلك مرة أخرى"، تابع الطفل. ثم بدا ذلك الرجل غاضباً لأن ماري أخبرته أنها سترحل. فأخبرها أنه سيعطيها أي شيء تريده.

- مائة فرنك! وغضبت ماري أيضاً ثم جاء ضدها، كما لو كان يريد أن يؤذيها. خفتُ وألقيتُ بنفسي على ماري وأنا أصرخ. ثم قال هذا الرجل شيئًا من هذا القبيل: ـــ"ما هذا؟ من أين جاء هذا الطفل؟ خذوها إلى الخارج". ورفع عصاه ليضربني. ولكن ماري أوقفته وقالت له: "سنتحدث فيما بعد يا سيدي، أما الآن فعليّ أن آخذ هذا الطفل إلى "فورشة" ثم أعود. وما إن خرج من حظيرة الغنم حتى قالت لي ماري هكذا: لنهرب يا بيير، لنخرج من هنا بسرعة لأن ذلك الرجل شرير ولن يؤذينا إلا بأذى. فذهبنا إلى خلف الحظائر، مروراً بمرج صغير، وذهبنا إلى فورشة للبحث عنك. لكنك لم تكن هناك ولم يسمحوا لنا بانتظارك. وهكذا جاء ذلك الرجل الذي كان يمتطي حصانه الأسود من خلفنا، فهربنا بعيداً، ثم اختبأنا في الغابة. ثم جاء إلى هناك أيضًا، وعندما سمعناه

قادمًا اختبأنا. وبعد ذلك، عندما مر، بدأنا نركض مرة أخرى لنخرج ونعود إلى المنزل؛ ثم، أخيراً، جئت أنت ووجدتنا؛ وهكذا حدث كل شيء. أليس صحيحاً يا ماري أنني لم أنسى شيئاً؟

- لا يا "بيير"، كل ذلك صحيح. والآن، جيرمان، ستشهد لي، وستخبر الجميع حيث الأهل أنني إذا لم أستطع البقاء هناك لم يكن ذلك بسبب نقص الشجاعة أو الرغبة في العمل.

- وأنت يا ماري"، قال جيرمان، "أود أن أسألك، أن تسألي نفسك ما إذا كان رجل في الثامنة والعشرين من عمره ليس كبيراً جداً عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن امرأة ومعاقبة رجل وقح! إنني أود أن أعرف ما إذا كان باستيان أو أي فتى جميل آخر أصغر مني بعشر سنوات لم يكن ليسحقه هذا الرجل، كما يقول بيتي بيير: ما رأيك؟

- أعتقد يا جيرمان أنك قد أسديت إليّ معروفاً عظيماً، وسأشكرك عليه بقية حياتي.

- وهذا كل ما في الأمر!

- "قال الطفل: "أبي الصغير، لم أفكر أبداً لأخبر ماري الصغيرة بما وعدتك به لم يكن لدي وقت، لكنني سأخبرها في المنزل، وسأخبر جدتي أيضًا. هذا

الوعد من طفله أعطى جيرمان أخيرًا شيئًا ليفكر فيه. لقد كان عليه الآن أن يشرح لوالديه ما كان عليه أن يقوله لهما، وأن يخبرهما بمظالمه ضد الأرملة غيران، لا أن يخبرهما بالأفكار الأخرى التي دفعته إلى أن يكون بهذا الوضوح والشدة. عندما يكون المرء سعيداً وفخوراً، فإن الشجاعة التي تجعل الآخرين يتقبلون سعادته تبدو سهلة؛ ولكن أن يكون المرء مرفوضاً من ناحية وملوماً من ناحية أخرى لا يجعل الموقف مريحاً جداً. ولحسن الحظ، كان بيير الصغير نائماً عندما وصلا إلى المزرعة، ووضعه جيرمان على سريره دون أن يوقظه. ثم ذهب إلى كل التفسيرات التي يمكنه تقديمها. وكان الأب موريس، الجالس على سلمه ذي الأرجل الثلاث عند مدخل البيت، يستمع في وقار، وعلى الرغم من أنه لم يكن راضياً عن نتيجة هذه الرحلة، إلا أنه عندما سأل جيرمان والد زوجته وهو يروي نظام الأرملة في التودد إذا كان لديه الوقت الكافي للذهاب في الاثنين والخمسين أسبوعا من السنة ليقوم بالتودد ليخاطر بأن يطرد في نهاية السنة، أجاب والد زوجته مطأطئ الرأس موافقاً.

- أنت لست مخطئًا يا جيرمان؛ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

- وبعد ذلك، عندما روى جيرمان كيف اضطر إلى إعادة ماري الصغيرة بأسرع ما يمكن لإنقاذها من إهانات وربما عنف سيد لا يستحق، أومأ الأب موريس برأسه مرة أخرى قائلاً :

- لم تكن مخطئًا يا جيرمان، بل كنت على حق. وعندما انتهى جيرمان من سرد قصته و إبداء أسبابه، تنهد والد الزوج ووالدة الزوجة تنهيدة استسلام ثقيلة في وقت واحد وهما ينظران إلى بعضهما البعض. ثم نهض رب الأسرة وقال:

- تعالوا! ما شاء الله لا يمكن أن تؤمر الصداقة!

- قالت الحماة: تعال وتناول العشاء يا جيرمان. من المؤسف أن الأمور لم تسر على ما يرام؛ ولكن، على كل حال، يبدو أن الله لم يشأ ذلك، على ما يبدو. عليك أن تبحث عن مكان آخر.

- أجل"، أضاف الرجل العجوز: "كما تقول زوجتي، سنرى في مكان آخر.

ولم يكن هناك ضجيج آخر في البيت، وعندما استيقظ بيير الصغير مع فجر اليوم التالي، ولم يعد متحمساً للأحداث غير العادية التي وقعت في الأيام السابقة، عاد إلى لامبالاة الفلاحين الصغار في مثل سنه، ونسي كل ما كان يدور في ذهنه، ولم يفكر إلا في اللعب مع إخوته وملاعبة الرجل مع الثيران

والخيول. وحاول جيرمان أن ينسى هو أيضاً بالعودة إلى العمل؛ ولكنه أصبح حزيناً مشتتاً حزيناً لدرجة أن الجميع لاحظوا ذلك. ولم يتحدث إلى ماري الصغيرة، ولم ينظر إليها حتى؛ ومع ذلك لو سأله أحد في أي مرج هي أو في أي طريق جاءت لم تكن هناك ساعة من ساعات النهار لم يكن يستطيع أن يخبرهم لو أراد. ولم يكن يجرؤ على أن يطلب من والديه أن يأويها في المزرعة خلال الشتاء، ومع ذلك فقد كان يعلم أنها لا بد أن تكون تعاني البؤس. ولكنها لم تفعل، ولم تستطع الأم غيليت أن تفهم أبداً كيف أن مخزونها الصغير من الحطب لم ينقص أبداً، وكيف أن سقيفتها كانت ممتلئة في الصباح بينما كانت تتركها شبه فارغة في المساء. وكان الأمر نفسه ينطبق على القمح والبطاطس. جاء أحدهم من نافذة العلية وأفرغ كيسًا على الأرض دون أن يوقظ أحدًا ودون أن يترك أثرًا. كانت المرأة العجوز قلقة وسعيدة في نفس الوقت، وحثت ابنتها على عدم التحدث عن ذلك، قائلة إنه إذا علم أحد بالمعجزة التي كانت تحدث في منزلها، فإنها ستعتبر ساحرة. كانت تظن أن الشيطان يتدخل، لكنها لم تكن في عجلة من أمرها لتخاصمه باستدعاء الكاهن لطرد الأرواح الشريرة من منزلها، وقالت لنفسها إن الوقت قد حان عندما يأتي الشيطان ليطلب روحها مقابل منافعه. وفهمت ماري الصغيرة

الحقيقة على نحو أفضل، ولكنها لم تجرؤ على ذكر ذلك لجيرمان، خوفاً من أن تراه يعود إلى فكرته عن الزواج، وتظاهرت معه بأنها لا تلاحظ شيئاً.

16

الأم موريس

ذات يوم وجدت الأم موريس نفسها وحيدة في البستان مع جيرمان، فقالت له بلهجة ودودة: "يا زوج ابنتي المسكينة، أعتقد أنك لست على ما يرام. أنت لا تأكل جيداً كما كنت تأكل في السابق، ولم تعد تضحك، ولم تعد تتكلم كثيراً. هل أزعجك أحد من قومنا، أو نحن أنفسنا، دون أن ندري ودون قصد، هل أزعجك أحد منا؟

- لا يا أمي، أجاب جرمان: لا يا أمي، لقد كنت دائماً طيبة معي كأمي التي أنجبتني، وسأكون عاقا إذا اشتكيت منك أو من زوجك أو من أي شخص آخر في البيت.

- في هذه الحالة، يا ابني، إن حزنك على وفاة زوجتك هو حزنك أنت يا ابني. وبدلاً من أن يزول مع مرور الوقت، فإن ضجرك يزداد سوءاً ويجب أن تفعل ما قاله لك والد زوجتك بحكمة بالغة: يجب أن تتزوج مرة أخرى.

- نعم يا أمي، هذه فكرتي أيضًا؛ ولكن النساء اللاتي نصحتني بالبحث عنهن لا يناسبنني. عندما أراهن، وبدلاً من أن أنسى "كاثرين" التي أحبها، أفكر فيها أكثر.

- يبدو يا جيرمان أننا لم نتمكن من تخمين ذوقك. لذا عليك أن تساعدنا بإخبارنا بالحقيقة. لا شك أن هناك في مكان ما امرأة مخلوقة لك، لأن الرب الصالح لا يخلق أحداً دون أن يدخر سعادته في شخص آخر. فإن كنت تعرف أين تجد المرأة التي تريدها فابحث عنها؛ وسواء أكانت جميلة أم قبيحة، شابة أم عجوزاً، غنية أم فقيرة، فأنا ورجلي العجوز عازمان على أن نوافقك عليها، لأننا سئمنا من رؤيتك حزيناً، ولا نستطيع أن نعيش في سلام إن لم تكن أنت كذلك.

- فأجابها جيرمان: (يا أمي، أنتِ طيبة كطيب الله، وكذلك أبي؛ ولكن شفقتك لا تستطيع أن تشفي مشاكلي: فالفتاة التي أريدها لا تريدني.

- هل هذا لأنها صغيرة جداً؟ إن التعلق بشابة صغيرة هو حماقة بالنسبة لك.

- حسناً، نعم يا أمي الطيبة، لديّ هذه الحماقة في التعلق بشابة، وأنا ألوم نفسي على ذلك. إنني أبذل قصارى جهدي لكي لا أفكر في ذلك؛ ولكن

سواء كنت أعمل أو أرتاح، سواء كنت في القداس أو في الفراش، مع أولادي أو معك، فإنني أفكر فيها دائمًا، ولا أستطيع التفكير في أي شيء آخر.

- إذاً الأمر أشبه بتعويذة ألقيت عليك يا "جيرمان"؟ هناك علاج واحد لهذا، وهو أن تغير الفتاة رأيها وتستمع إليك. لذا يجب أن أتدخل وأرى إن كان ذلك ممكناً. ستخبرني أين هي وما اسمها.

- قال جيرمان: "للأسف، يا أمي العزيزة، لا أجرؤ على ذلك لأنك ستسخرين مني.

- لن أسخر منك يا جيرمان، لأنك في ورطة ولا أريد أن أضعك في ورطة أخرى. هل يمكن أن تكون فانشيت؟

- لا يا أمي، ليس كذلك.

- أو روزيت؟

- أو روزيت؟

- أخبرني، لأنني لن أكمل إذا كان علي أن أذكر أسماء كل الفتيات في البلاد.

أحنى جيرمان رأسه ولم يستطع أن يجيب.

- قالت الأم موريس: (تعال يا جيرمان سأتركك في سلام اليوم، ولعلك تكون غداً أكثر ثقة بي، أو لعل زوجة أخيك تكون أكثر مهارة في استجوابك).

وحملت سلتها لتذهب وتعلق غسيلها على الشجيرات. وفعل جيرمان ما يفعله الأطفال عندما يدركون أنهم لن يتم الاعتناء بهم بعد الآن. ولحق بحماته، وأخيراً، وهو يرتجف، سمى ماري الصغيرة، ماري غيليت. كانت الأم موريس مندهشة للغاية: كان آخر ما فكرت فيه، ولكنها كانت تتحلى بالرقة حتى لا تتراجع، وأن تدلي بتعليقاتها عقلياً. ثم رأت أن صمتها كان يغلب على جيرمان فناولته سلته وقالت:

- هل هناك سبب يمنعك من مساعدتي في عملي؟ لماذا لا تحمل هذا الحمل وتأتي لتحدثني؟ هل فكرت في الأمر يا "جيرمان"؟ هل اتخذت قرارك؟

- واحسرتاه يا أمي العزيزة، ليس هذا هو السبيل إلى الحديث: سأكون مصمماً لو استطعت أن أنجح؛ ولكن بما أنه لن يستمع إلي، فأنا مصمم على علاج نفسي فقط إن استطعت.

- و إن لم تستطع؟

- إن لكل شيء نهايته يا أم موريس: عندما يثقل الحصان يسقط، وعندما لا يجد الثور ما يأكله يموت.

- هل هذا يعني أنك ستموت إذا لم تنجح؟ لا سمح الله يا "جيرمان"! أنا لا أحب أن يقول رجل مثلك أشياء كهذه لأنه عندما يقولها فهو يعنيها. لديك

شجاعة كبيرة والضعف خطر على الأقوياء. هيا، تحلى بالأمل لا أفهم كيف يمكن لفتاة معدمة تكرمها كثيراً بسعيك إليها أن ترفضك.

- ومع ذلك صحيح أنها ترفضني.

- وما هي الأسباب التي قدمتها لك لهذا؟

- أنك أحسنت إليها دائماً، وأن أسرتها مدينة لك بالكثير، وأنها لا تريد أن تغضبك برفضها الزواج من رجل غني.

- إن كانت تقول ذلك فهي تبدي مشاعرها الطيبة، وهذا صدق منها. ولكنها بإخبارك هذا يا جيرمان لا تشفيك من هذا القول، لأنها لا شك تقول لك إنها تحبك وأنها تود أن تتزوجك لو أردنا ذلك؟

- هذا هو أسوأ ما في الأمر، فهي تقول إن قلبها ليس متعلقاً بي.

- فإن كانت تقول ما لا تقصده فالأفضل أن تبعدك عنها، فهي طفلة تستحق أن نحبها وأن نقضي معها وقتنا. على شبابها بسبب عقلها الكبير.

- قال جرمان وقد أذهله توقع لم يكن قد تصوره بعد:

ـــ (نعم؟) (إن ذلك سيكون حكيماً جداً ومناسباً منها!) ولكن إذا كانت عاقلة إلى هذا الحد، فأخشى أن يكون ذلك لأنني أغضبها.

- قالت الأم موريس: (يا جيرمان، ستعدني بأنك ستبقى هادئاً طوال الأسبوع، وأنك لن تتعذب، وأنك ستأكل وتنام وتكون مبتهجاً كما كنت. سأتحدث إلى العجوز، وإذا استطعت أن أحمله على الموافقة، فسأكلمه في ذلك حتى يكون لك من الفتاة ما يرضيها، فتكون لك مشاعر الفتاة الحقيقية تجاهك. ووعد جيرمان بذلك، ومر الأسبوع دون أن يقول له الأب موريس كلمة واحدة أو يبدو أنه يشك في شيء. وحاول الحراث أن يبدو هادئاً، ولكنه كان دائماً أكثر شحوباً وأشد عذاباً.

17

ماري الصغيرة

وأخيراً، في صباح يوم الأحد، بينما كان خارجاً من القداس، سألته حماته عما استفاد من صديقته الحميمة منذ الحديث الذي دار بينهما في البستان.

- فأجاب: "لا شيء على الإطلاق. لم أتحدث إليها.

- كيف يمكنك إقناعها إذا لم تتحدث معها؟

- أجابت جيرمان: "لم أتحدث إليها سوى مرة واحدة". كان ذلك عندما كنا معًا في فورش؛ ومنذ ذلك الحين، لم أتحدث إليها بكلمة واحدة. لقد أزعجني رفضها كثيراً لدرجة أنني أفضل ألا أسمعها تقول مرة أخرى أنها لا تحبني.

- حسناً يا بني، يجب أن تتحدث إليها الآن! لقد أذن لك والد زوجتك بذلك. هيا، اتخذ قرارك، أنا أقول لك، و إن كنت مضطراً إلى ذلك، فأنا أريد أن أفعل؛ لأنك لا تستطيع أن تبقى في هذا الشك. أطاع "جيرمان" الأمر. وصل إلى منزل "لا غيليت" ورأسه مطأطئ ويبدو عليه الارتباك. كانت ماري الصغيرة وحيدة بجانب النار، وكانت مستغرقة في التأمل لدرجة أنها لم تسمع جيرمان

وهو قادم. وعندما رأته واقفاً أمامها قفزت إلى الوراء في كرسيها واحمر وجهها.

- قال وهو جالس بجانبها: (ماري الصغيرة): (لقد جئت لأسبب لك الألم وأزعجك، أعرف ذلك: ولكن رجل وامرأة بيتنا (في إشارة إلى أرباب الأسرة حسب العرف) يريدان مني أن أتحدث إليك وأطلب منك الزواج مني. أنت لا تريدينني أن أفعل، أنا أتوقع منك ذلك.

فأجابت ماري الصغيرة: ــ "جيرمان" "إذن فقد قررت أن تحبني؟

- إنني أعلم أن هذا يغضبك، ولكن هذا ليس ذنبي: لو استطعت أن تغيري رأيك لكنت سعيداً جداً، وأنا بالتأكيد لا أستحق ذلك. هيا، انظري إليّ يا ماري كم هو مروع؟

- لا يا جيرمان"، أجابت مبتسمة: "لا، يا جيرمان، أنت أكثر وسامة مني.

- لا تسخري مني، انظري إليّ بتساهل، فأنا لا ينقصني شعرة أو سن. عيناي تخبرك أنني أحبك. انظري في عيني، إن هذا مكتوب هناك، وكل فتاة تعرف كيف تقرأ هذا الخط. نظرت ماري في عيني جيرمان بطمأنينتها المبتهجة؛ ثم فجأة أشاحت برأسها وبدأت ترتجف.

- قالت: جيرمان "يا إلهي! أنا أخيفك"!، أنت تنظر إليّ كما لو كنت مزارعاً من أورمو. أرجوك لا تخف مني، فهذا يؤلمني كثيرًا. لن أقول لك كلاماً سيئاً، ولن أقبلك رغماً عنك، وعندما تريدني أن أغادر، كل ما عليك أن تريني الباب. دعنا نرى، هل يجب أن أرحل حتى تتوقف عن الارتعاش؟ فمدت ماري يدها إلى الحراث، ولكن دون أن تدير رأسها عن الموقد، ودون أن تنطق بكلمة واحدة.

قال جيرمان: ـــ أنا أفهمك يا سيدتي؛ إنك تشفقين عليَّ لأنك طيبة، إنك غاضبة وخائفة من أن تجعليني تعيسا: ولكن ألا تستطيعين أن تحبيني؟

- لماذا تقول لي مثل هذا الكلام يا جيرمان"، أجابت ماري الصغيرة أخيرًا: "لماذا تقول لي مثل هذا الكلام، هل تريد أن تجعلني أبكي؟

- أيتها الفتاة الصغيرة المسكينة، أعرف أن قلبك طيب، ولكنك لا تحبينني، وأنت تخفين وجهك عني لأنك تخافين أن أرى استياءك ونفورك. وأنا لا أجرؤ حتى على مصافحتك! في الغابة، عندما كان ابني نائماً وأنت نائمة أيضاً، كدت أقبلك بلطف. ولكني كنت أود أن أموت من الخجل بدلاً من أن أطلب منك ذلك، وفي تلك الليلة عانيت كما يعاني الرجل الذي يحترق ببطء. ومنذ ذلك الحين وأنا أحلم بك كل ليلة. آه، كم قبلتك يا ماري! لكنك، خلال ذلك

الوقت، كنتِ تنامين دون أن تحلمي. وهل تعلمين بماذا أفكر الآن، أعتقد أنك لو استدرت ونظرت إليّ بعينيك اللتين أكنهما لك، ولو أنك قربت وجهك من وجهي لوقعت ميتاً من الفرح. وتعتقدين أنه لو حدث لكِ مثل هذا الأمر لمُتِّ من الغضب والخجل! تحدث جيرمان كما لو كان في حلم، دون أن يسمع ما يقوله. كانت ماري الصغيرة لا تزال ترتجف، ولكنه لم يعد ينتبه إليها وهو يرتجف أكثر. وفجأة التفتت إلى الوراء؛ وكانت تبكي وتنظر إليه في عتاب. وظن الحراث المسكين أنها كانت الضربة الأخيرة، ودون أن ينتظر أن تمنعه من ذلك، نهض ليغادر، ولكن الفتاة الصغيرة أوقفته بلف ذراعيها حوله وأخفت رأسها في حضنها وقالت له وهي تبكي:

ــ (آه يا جيرمان) ثم قالت له وهي تنتحب: ألم تخمن أني أحبك؟ وكان جيرمان سيجن جنونه لو لم يكن ابنه الذي كان يبحث عنه والذي دخل الكوخ وهو يعدو بأقصى سرعة على عصا، وفي ظهره أخته الصغيرة التي كانت تضرب هذا الجواد الوهمي بغصن خوص، قد ذكره بنفسه. فرفعه بين ذراعيه ووضعه بين ذراعي خطيبته وقال: حسناً، لقد أسعدت أكثر من شخص بحبك لي!

ملحق

1

حفلات الزفاف الريفية

وهنا تنتهي قصة زواج جيرمان كما رواها لي بنفسه، ذلك الحراث البارع الذي هو كذلك! وأستسمحك عذراً يا صديقي لأنني لم أستطع أن أترجمها لك ترجمة أفضل من هذه القصة؛ لأنها ترجمة صحيحة لازمة للغة القديمة الساذجة التي يتحدث بها فلاحو المنطقة التي أتغنى بها (كما كانوا يقولون قديماً). إن هؤلاء الناس يتكلمون الفرنسية أكثر من اللازم بالنسبة لنا، ومنذ رابليه ومونتين أدى تقدم اللغة إلى أن نفقد الكثير من الثروات القديمة. هكذا هو الحال مع كل تقدم، عليك أن تتقبله. ولكن لا يزال من دواعي سروري أن أسمع هذه العبارات الغبية الخلابة[44] التي تسود الأرض القديمة في وسط فرنسا؛ ويزيد من سروري أن تعبيرًا حقيقيًا عن الطابع الهادئ الساخر الذي يتسم به الناس الذين يستخدمونه. حافظت تورين على عدد من التعابير الأبوية القيّمة. ولكن تورين أصبحت أكثر تحضراً منذ عصر النهضة. فهي

[44] عبارات خاصة باللغة.

مغطاة بالقلاع والطرقات والأجانب والحركة. أما بيري فقد بقيت على حالها، وأعتقد أنها بعد بريتاني وبعض المقاطعات في أقصى الجنوب الفرنسي، أكثر البلاد التي يمكن أن نجدها في الوقت الحاضر محافظة على عاداتها. إن بعض العادات غريبة جداً وعجيبة جداً، وأرجو أن أمتعك للحظة عزيزي القارئ إذا سمحت لي أن أحكي لك بالتفصيل عن عرس ريفي هو عرس جيرمان مثلاً الذي سعدت بحضوره منذ بضع سنوات. لأنه، وللأسف، كل شيء إلى زوال. فمنذ أن ظهرت إلى الوجود فقط حدثت حركة في أفكار قريتي وعاداتها أكثر مما كانت عليه منذ قرون قبل الثورة. لقد اختفت بالفعل نصف الاحتفالات الكلتية والوثنية والعصور الوسطى التي رأيتها بكامل قوتها في طفولتي. وربما بعد عام أو عامين آخرين ستمر السكك الحديدية فوق وديانتنا العميقة حاملة معها تقاليدنا القديمة وأساطيرنا الرائعة بسرعة البرق. كان ذلك في فصل الشتاء، في وقت الكرنفال تقريباً، وهو الوقت من السنة الذي يكون مناسباً وملائماً في بلادنا لإقامة الأعراس. أما في الصيف فلا يكاد يكون هناك متسع من الوقت، ولا يمكن أن يتأخر عمل المزرعة ثلاثة أيام، ناهيك عن الأيام الإضافية اللازمة لهضم، بشكل أو بآخر، التسمم المعنوي والجسدي للاحتفال. كنت جالسًا تحت رف الموقد

الواسع في مدفأة المطبخ القديم عندما أعلنت طلقات المسدس وعواء الكلاب وأصوات مزمار القربة ذات النبرة العالية عن اقتراب العروسين. وسرعان ما دخل الأب والأم موريس، وجيرمان وماري الصغيرة، وتبعهم جاك وزوجته، والأقارب الرئيسيون وعرّابو الخطيبين، إلى الفناء. ماري الصغيرة، التي لم تكن قد حصلت بعد على هدايا زفافها المعروفة بالكبد، ترتدي أفضل ما لديها من ملابس محتشمة: فستان من القماش الداكن الثقيل، ومنديل أبيض بخطوط كبيرة زاهية الألوان، ومئزر من القماش الهندي[45] الأحمر الذي كان موضة في ذلك الوقت ولكنه كان محتقراً اليوم، وغطاء رأس من الموسلين الأبيض جداً، في شكل تم الحفاظ عليه لحسن الحظ، يذكرنا بتسريحة شعر آن بولين[46] وآني سوريل[47]. وكان كانت منتعشة ومبتسمة، ولم تكن متكبرة على الإطلاق، على الرغم من وجود الكثير من الأسباب

[45] قماش قطني مطلي تم استيراده في البداية من الهند ثم تم تصنيعه في أوروبا.

[46] الزوجة الثانية لهنري الثامن ملك إنجلترا، الذي أمر بقطع رأسها ليتزوج من جين سيمور. وقد أصبح الرسام هانز هولباين، الذي يصف جورج ساند نقشه في افتتاحية الرواية، الرسام الرسمي لبلاط هنري الثامن. وقد رسم العديد من اللوحات الشخصية ولا سيما للملك وزوجاته. يُظهر رسم لآن بولين وصورة زيتية لجاين سيمور المرأتين وهما ترتديان نفس غطاء الرأس. يحيط غطاء الرأس بالوجه ويحيط بالشعر بالكامل من الجبهة حتى مؤخرة العنق ويغطي الأذنين وينخفض على كلا الجانبين على طول الفك السفلي حتى مستوى الفم.

[47] المفضلة لدى الملك الفرنسي شارل السابع. يُقال إن الرسام جان فوكيه رسم ملامحها لتمثيل العذراء محاطة بالملائكة، وهي إحدى لوحتي لوحة ميلون ديبتيك، التي رسمها إتيان شوفالييه بتكليف من إتيان شوفالييه. العذراء هي اليوم في أنتويرب.

التي تدعو إلى ذلك. لقد كان جرمان وقورًا رقيقًا معها، مثل يعقوب الشاب وهو يستقبل راحيل في صهاريج لابان[48]. وأي فتاة أخرى كانت لتبدو في مظهر من الأهمية ومظهر المنتصر؛ لأن الزواج في كل المراتب هو شيء من أجل حسن المظهر. لكن عيني الفتاة كانتا تلمعان حبا وكان من الواضح أنها كانت مغرمة بعمق، وأنه لم يكن لديها وقت للقلق بشأن آراء الآخرين. ولم يكن جوّها الحازم قد هجرها بل كان كله صراحة وحسن نية؛ ولم يكن في نجاحها شيء من الوقاحة، ولا شيء شخصي في شعورها بقوتها. ولم أر قط مثلها خطيبة حلوة في جمالها وجمالها، وكانت تجيب بوضوح على صديقاتها الشابات اللاتي يسألنها إن كانت سعيدة.

- بالطبع، أنا لا أشكو من الله. وتكلم الأب موريس، وكان قد جاء ليقدم التحيات والدعوات المعتادة. فبدأ أولاً بربط غصن غار مزين بشرائط على

[48] نص الكتاب المقدس يستحق الاقتباس. وصل يعقوب للتو إلى بئر لابان وهو يتحدث إلى الرعاة. "وبينما هو لا يزال يتحدث معهم إذ ظهرت راحيل مع غنم أبيها لأنها كانت راعية. فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ رَاحِيلَ (...) ذَهَبَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبِئْرِ وَسَقَى غَنَمَ لابَانَ أَخِي أُمِّهِ. فَقَبَّلَ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَبَكَى" (التكوين، التاسع والعشرون، 9-12). وقد صوّر هذا اللقاء العديد من الرسامين، بما في ذلك رافائيل وكلود لوران، وآري شيفر، وهو معاصر لجورج ساند الذي كان يعرفه. لا يسعنا إلا أن نلاحظ الاستخدام الغزير لكل هذه المراجع التصويرية. يحيل جورج ساند القراء إلى الصور لمساعدتهم على تصور غطاء الرأس البيريشوني. وللتدليل على موقف جيرمان تحيله إلى حلقة توراتية تدور أحداثها في مجتمع رعوي صوره الرسامون.

رف الموقد؛ وهذا ما يسمى "المأثرة"[49]، أي رسالة الإعلان؛ ثم أعطى كل واحد من الضيوف صليباً صغيراً. مصنوعة من قطعة من الشريط الأزرق تتقاطع مع قطعة أخرى من الشريط الوردي؛ الوردي للعروس، والأزرق للعريس؛ وكان على المدعوين من الجنسين أن يحتفظوا بهذه العلامة ليزين بها بعضهم فساتين زفافهم، والبعض الآخر عرواتهم في يوم الزفاف. هذا هو خطاب القبول، بطاقة الدخول. ثم ألقى الأب موريس بعد ذلك مجاملته. ودعا رب البيت وجميع رفقائه، أي جميع أبنائه وجميع أقاربه وجميع أصدقائه وجميع خدمه، إلى البركة والوليمة واللهو والرقص وكل ما يتبع ذلك. ولم يفته أن يقول: "لقد جئت لأتشرف بلقائكم[50]. وهو تعبير دقيق جدًا، و إن بدا لنا أنه تعبير خاطئ، لأنه يعبر عن فكرة إكرام من يراه المرء مستحقًا للتكريم. وعلى الرغم من سخاء الدعوة التي امتدت من بيت إلى بيت في جميع أنحاء الرعية، فإن الأدب الذي هو في غاية التحفظ من بين القواعد المتبعة في الزراعة أن يستفيد شخصان فقط من كل عائلة، رب الأسرة وأحد أبنائها. بمجرد إرسال الدعوات، ذهب العريس والعروس ووالديهما لتناول العشاء معًا في المزرعة.

[49] مصطلح قانوني أيضاً. أمر المحضر هو الوثيقة المستخدمة لتقديم الاستدعاءات والإخطارات. مثل العادات القطرية، يحافظ الاستخدام القانوني على المعاني القديمة للكلمات.

[50] 1 للدعوة إلى حفل (ليتري).

كانت ماري الصغيرة ترعى أغنامها الثلاثة هناك، وكان جيرمان يعمل في الأرض وكأن شيئًا لم يكن. في اليوم السابق للزفاف، في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، وصلت الموسيقى، أي وصل عازف القربة وعازف الغيتار بآلاتهما المزينة بشرائط طويلة عائمة، وعزفا مسيرة للمناسبة، بإيقاع كان بطيئاً بعض الشيء بالنسبة لغير أهل المنطقة، ولكنه كان مناسباً تماماً لطبيعة الأرض الدهنية والدروب المتموجة في المنطقة. تم الإعلان عن بداية العرس بطلقات المسدسات التي أطلقها الشباب والأطفال. وتجمع المدعوون تدريجياً ورقصوا على العشب أمام المنزل للدخول في أجواء الحفل. وعندما حلّ الليل بدأت الاستعدادات الغريبة، وانقسموا إلى مجموعتين، وعندما انتهى الليل بدأوا بمراسم الزفاف. تم ذلك في منزل العروس، وهو كوخ "لا غيليت" المصنوع من القش. واصطحبت لا غيليت معها ابنتها، وعشر راعيات شابات جميلات، وصديقات ابنتها وأقاربها، واثنتين أو ثلاث من السيدات المحترمات، وجارات قويات اللسان، سريعات الرد، وحارسات صارمات على العادات القديمة. ثم اختارت عشرات من الأبطال الأقوياء من أقاربها وأصدقائها؛ وأخيراً رجل الرعية العجوز، وهو رجل كثير الكلام، متحدث جيد ولبق. في "بروتاني"، يلعب "البازفالان"،

وهو خياط القرية، نفس الدور الذي يلعبه طاحن القنب أو خياط الصوف (وهما مهنتان غالباً ما تجتمعان في مهنة واحدة) في ريفنا. وهو حاضر في جميع المناسبات، سواء كانت حزينة أو سعيدة، لأنه في الأساس عالم ومتحدث بارع، وفي هذه المناسبات يكون مسؤولاً دائماً عن القيام ببعض الإجراءات الشكلية المتعارف عليها منذ زمن بعيد بوقار. إن المهن المتجولة التي تجلب الرجال إلى حضن العائلات دون أن تسمح لهم بالتركيز في عائلاتهم هي الأكثر شيوعًا. ليجعله كثير الكلام، لطيفاً وقاصاً ومطرباً ومغنياً إن طاحونة القنب متشككك بشكل خاص. فهو وموظف ريفي آخر من أهل الريف، وهو حفار القبور الذي سنتحدث عنه بعد قليل، هما دائماً الروحان القويتان في المكان. وقد تحدثا كثيراً عن الأشباح ويعرفان جيداً كل الحيل التي تستطيع هذه الأرواح الشريرة القيام بها، حتى أنهما لا يخشيانها كثيراً. وفي الليل على وجه الخصوص، يقوم جميع هؤلاء، حفارو القبور والأشباح، بأعمالهم. وفي الليل أيضاً يحكي حفار القبور أساطيره المؤسفة. اسمحوا لي أن أستطرد للحظة... عندما ينضج القنب أي ينقع بما فيه الكفاية في الماء الجاري ويجف نصفه على الشاطئ، يؤتى به إلى فناء المنزل؛ ويوضع منتصباً في حزم صغيرة تبدو، وقد انتشرت سيقانها في الأسفل ورؤوسها

مربوطة في كرات، وكأنها موكب طويل من الأشباح البيضاء الصغيرة التي تندس على أرجلها المغزلية المغروسة وتمشي بلا ضوضاء على طول الجدران. في نهاية شهر سبتمبر، عندما تكون الليالي لا تزال دافئة، تبدأ في الطحن في ضوء القمر الشاحب. خلال النهار، يتم تسخين القنب في الفرن، وفي المساء يتم إخراجه وسحقه وهو لا يزال دافئًا. وللقيام بذلك، يستخدمون نوعًا من الحامل الذي تعلوه رافعة خشبية تتراجع على أخاديد تقطع النبات دون تفتيته. وعندها تسمع صوتاً حاداً متشنجاً لثلاث ضربات سريعة في الريف ليلاً. ثم يسود الصمت، وحركة الذراع وهي تسحب حفنة القنب لسحقها على جزء آخر من طولها. وتبدأ الضربات الثلاث مرة أخرى؛ والذراع الأخرى هي التي تعمل على الرافعة وهكذا إلى أن يحجب القمر بضوء الفجر الأول. وبما أن هذا العمل لا يدوم إلا أياماً قليلة في السنة، فإن الكلاب لا تعتاد هذا العمل وتطلق عواءها الحزين في كل نقطة في الأفق. هذا هو وقت الضوضاء غير العادية والغامضة في الريف. تمرّ الرافعات المهاجرة عبر المناطق التي بالكاد يمكن للعين أن تراها في وضح النهار. وفي الليل، يمكن سماعها؛ وتلك الأصوات الحادة المبحوحة هي الشيء الوحيد الذي يمكن سماعه. يبدو أن أنينها التائه في السحاب هو نداء ووداع الأرواح

المعذبة التي تجاهد لتجد طريقها إلى السماء، والتي يجبرها القدر الذي لا يقهر على التحليق غير بعيد عن الأرض، حول مسكن البشر؛ لأن هذه الطيور المسافرة تعتريها في أثناء رحلتها الجوية شكوك غريبة وقلق غامض. فهي تفقد الريح أحياناً، عندما تتصارع النسائم المتقلبة أو يتبع بعضها بعضاً في المناطق المرتفعة. وعندما تحدث هذه الاضطرابات أثناء النهار، يشاهد القائد وهو يطفو في الهواء مغامراً، ثم يستدير ويعود ليقف في ذيل الكتيبة المثلثة، بينما سرعان ما تعيدهم مناورة ماهرة من رفاقه في انتظام جيد خلفه. وغالباً ما يتخلى الدليل المنهك عن قيادة القافلة بعد جهود عبثية، فيتقدم آخر ويحاول أن يقوم بدوره، ويفسح المجال لثالث يستعيد التيار ويبدأ المسيرة منتصراً. ولكن أي صرخات وأي توبيخات وأي لعنات وحشية أو أسئلة قلقة يتم تبادلها، بلغة غير معروفة، بين هؤلاء الحجاج المجنحين! في صوت الليل، يمكنك أن تسمع هذه الصرخات المشؤومة تحوم أحياناً فوق المنازل لفترة طويلة؛ وبما أنك لا تستطيع أن ترى شيئاً، فإنك تشعر، على الرغم من نفسك، بنوع من الخوف والقلق المتعاطف، حتى تضيع هذه السحابة الصاخبة في هذا السديم. لا تزال هناك ضوضاء أخرى خاصة بهذا الوقت من العام، والتي تحدث بشكل رئيسي في البساتين. لم يتم قطف الثمار بعد،

وألف طقطقة غير عادية تجعل الأشجار تبدو وكأنها كائنات حية. يصدر صرير غصن وهو ينحني تحت ثقل وصل فجأة إلى مرحلته النهائية من النمو؛ أو تنفصل تفاحة وتسقط بصوت ممل على الأرض الرطبة عند قدميك. ثم تسمع مخلوقًا لا تراه يركض بعيدًا، يتسلل فوق الأغصان والأعشاب: إنه كلب المزارع، ذلك المتجول الفضولي الذي لا يهدأ، الوقح والجبان في آن واحد، الذي يتسلل في كل مكان، ولا ينام أبدًا، ويبحث دائمًا عن من يعرف ماذا، ويتجسس عليك، مختبئًا في الشجيرات، ويهرب عند سماع صوت تفاحة، ظانًّا أنك ترمي عليه حجرًا. في هذه الليالي، المحجوبة والرمادية يحكي صانع القنب مغامراته الغريبة عن المجانين[51] والأرانب البيضاء، عن الأرواح المتألمة والسحرة الذين تحولوا إلى ذئاب، عن السابحات في مفترق الطرق والبوم النبي في المقبرة. أذكر أنني قضيت الساعات القليلة الأولى من الليل على هذا النحو حول الطواحين[52] المتحركة، التي كان قرعها الذي لا يرحم، والذي كان يقطع قصة صانع القنب في أكثر الأوقات رعباً، يبعث في عروقنا رعشة باردة. وكثيراً ما كان الرجل يستمر في الكلام أثناء الطحن؛ وكانت هناك أربع أو خمس كلمات ضائعة: كلمات مخيفة بلا شك لم نجرؤ على أن نجعله

[51] نوع من اللوتين فاميلييه زائد مالين كوين مالين (ليتريه).

[52] فكوك خشبية تستخدم لسحق سيقان القنب.

يكررها، وقد أضاف إغفالها لغزاً أكثر فظاعة إلى ألغاز قصته المظلمة أصلاً. وكان عبثاً أن حذرتنا الخادمات من أنه كان الوقت متأخراً جداً للبقاء في الخارج، وكان الوقت قد تجاوز موعد نومنا: لقد تأخرنا كثيراً؛ ثم بأي رعب عبرنا القرية لنعود إلى البيت! كم بدت لنا شرفة الكنيسة عميقة، وظلال الأشجار القديمة كثيفة وسوداء! أما المقبرة، فلم نتمكن من رؤيتها؛ أغمضنا أعيننا ونحن نسير بجانبها. ولكن صانع القنب ليس أكثر من قسيس يكرس نفسه للذة تخويف الناس؛ فهو يحب أن يضحك الناس، وهو ساخر وعاطفي عند الضرورة، عندما يضطر إلى الترنيم والتراتيل؛ وهو الذي يجمع الأغاني القديمة ويحفظها في ذاكرته وينقلها إلى الأجيال القادمة. ولذلك فهو الذي يتولى، في حفل الزفاف، الشخصية التي سنراه يؤديها في تقديم كسوة ماري الصغيرة.

2

الكسوة

ولما اجتمع الجميع في البيت، أغلقت الأبواب والنوافذ بأقصى درجات الحذر، حتى أنهم سدوا نافذة العلية، ووضعت الألواح الخشبية والجذوع والطاولات على جميع المخارج، كما لو كانوا يستعدون للحصار؛ وساد صمت مهيب من الترقب في هذا الداخل المحصن، حتى سُمع من بعيد الغناء والضحك وصوت الآلات الموسيقية الريفية. وكانت فرقة العريس، وعلى رأسها جرمان العريس، يرافقها أجراً رفاقه والحفارة والأقارب والأصدقاء والخدم، وقد شكلوا موكباً مبهجاً متماسكاً. غير أنهم ما أن اقتربوا من المنزل حتى تباطأوا وتشاوروا فيما بينهم وسكتوا. كانت الفتيات المحبوسات داخل المنزل قد صنعن شقوقاً صغيرة في النوافذ، حيث يمكنهن من خلالها رؤيتهم وهم يصلون ويتشكلون في صفوف القتال. كان المطر البارد يتساقط بغزارة مما زاد من حدة الموقف، بينما كانت نار كبيرة تتأجج في موقد المنزل. وكانت ماري تود أن تختصر البطء المحتوم لهذا الحصار؛ ولم تكن تحب أن ترى

خطيبها مكتئباً هكذا، ولكن لم يكن لها رأي في الأمر، بل كان عليها أن تشارك ظاهرياً في قسوة رفاقها المتمردة. وعندما كان الطرفان هكذا في مواجهة بعضهما بعضاً، أثار إطلاق نار من الخارج ضجة كبيرة بين جميع الكلاب في الجوار. وهرعت الكلاب الموجودة في المنزل إلى الباب تنبح معتقدة أنه هجوم حقيقي، وبدأ الأطفال الصغار الذين حاولت أمهاتهم عبثاً طمأنتهم بالبكاء والارتعاش. كان المشهد بأكمله متقن التمثيل لدرجة أن غريبًا كان سيقع في الفخ ويقع في ربما فكر في أن يضع نفسه في حالة دفاع ضد عصابة من السائقين[53]. ثم وقف حفار القبور، شاعر الخطيب وخطيبته، أمام الباب، وبصوت رثاء انخرط في الحوار التالي مع رجل الدفن، الذي كان يقف في النافذة السفلية فوق الباب نفسه الـمُحَدِّثُ.

حفار القبور

آهٍ يا شعبي الطيب، يا أبناء الرعية الأعزاء[54]، حباً بالله، افتحوا لي الباب.

صانع القنب

[53] اسم قطاع الطرق الذين أحرقوا أقدام ضحاياهم لإجبارهم على إخبارهم بمكان إخفاء الأموال.

[54] سكان الرعية. ويعني حفار القبور هنا: أصدقائي الذين هم من نفس الرعية التي أنتمي إليها. إذًا عنوان حفار القبور ليس له نفس معنى عنوان كاهن الرعية الذي يكون رعيته هم أيضًا رعيته.

من أنت، ولماذا تتجرأ على مناداتنا بأبناء رعيتك الأعزاء؟ نحن لا نعرفكم.

حفار القبور

نحن أناس صادقون في ورطة. لا تخافوا منا، يا أصدقائي! أكرمونا. الجو متجمد في الخارج وأقدامنا متجمدة وقد قطعنا مسافة طويلة حتى تشققت حوافرنا.

صانع القنب

إذا كانت حوافر حافرك مشقوقة، يمكنك البحث على الأرض؛ فربما تجد القليل من الخوص لصنع أقواس الحوافر (شفرات حديدية صغيرة على شكل أقواس توضع فوق الحوافر المشقوقة لتقويتها).

حفار القبور

أطواق الطيور ليست قوية جداً. تسخرون منا، أيها الطيبون، والأجدر بكم أن تنفتحوا علينا هناك نار جميلة تتوهج في منزلكم، ولا شك أنكم وضعتم سفود المشاوي عليها، وقلبكم ومعدتكم مبتهجة. فانفتحوا على الحجاج المساكين الذين سيموتون على بابكم إن لم ترحموهم.

صانع القنب

هل أنتم حجاج؟ لم تخبرنا بذلك. ومن أي حج أتيتم للتو من فضلكم!

حفار القبور

سوف نخبرك عندما تفتح لنا الباب، لأننا قطعنا شوطاً طويلاً لدرجة أنك لن تصدق ذلك.

صانع القنب

افتح الباب لك؟ نعم-دا! لا يمكننا الوثوق بك. لنرى: هل أنت قادم من سان سيلفان دي بوليني[55]؟

حفار القبور

لقد ذهبنا إلى سان سيلفان دي بولينيه، ولكننا ذهبنا إلى أماكن أبعد من ذلك بكثير.

صانع القنب

هل ذهبتم إلى سانت سولانج[56]؟

حفار القبور

لقد ذهبنا إلى سانت سولانج بالطبع، لكننا ذهبنا إلى أبعد من ذلك.

[55] على ما يبدو أنه اسم قرية اخترعه جورج ساند، ولكن يبدو أنه اسم من منطقة بيري حيث توجد قريتان بالقرب من لا شاترتدعى بوليني سان مارتن وبوليني نوتردام.

[56] المدينة في قسم شير

صانع القنب

أنت تكذب، أنت لم تذهب حتى إلى سانت سولانج.

حفار القبور

لقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك، لأننا في هذه الساعة وصلنا من سانتياغو دي كومبوستيلا[57]

صانع القنب

ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه؟ نحن لا نعرف تلك الأبرشية. يمكننا أن نرى أنكم أشرار وقطاع طرق ولا شيء على الإطلاق وكاذبون. اذهبوا أبعد من ذلك وتغنوا بهرائكم؛ نحن متأكدون أنكم لستم على حق. نحن على الأهبة، ولن تدخلوا هنا.

حفار القبور

الفسّاق للأسف، يا مسكين، أشفق علينا! نحن لسنا حجاجاً كما خمنت؛ ولكننا صيادون سيئو الحظ يطاردنا الحراس. إن رجال الدرك يطاردوننا أيضًا، و إذا لم تجعلنا نختبئ في مخزن التبن الخاص بك، فسيتم القبض علينا ونؤخذ إلى السجن.

[57] موقع حج رئيسي في شمال إسبانيا.

صانع القنب

ومن الذي سيثبت لنا، هذه المرة، أنك كما تقول؟ لأن هذا كذب بالفعل لم تتمكن من دعمه. الفاسقون إذا كنت تريد أن تفتح لنا، سنريك قطعة جيدة من لحم الغزال الذي قتلناه. الصياد أرنا إياها في الحال، لأننا نشك في الأمر .

حفار القبور

أوه، هراء! ليس هذا هراء! أنا أنظر إليكم من خلال ثقب صغير[58] ولا أرى بينكم أي صيادين أو طرائد. وهنا انفصل راعي بقر ممتلئ الجسم قوي البنية هرقلي القوة عن المجموعة التي كان يقف فيها دون أن يلاحظه أحد، ورفع إوزة مقطوفة نحو الكوة، ومر من خلال بصاق حديدي قوي، مزين بعناقيد من القش والشرائط.

- هذا ليس طائر السمان أو الحجل، ليس أرنباً برياً ولا أهليا، إنه شيء مثل الإوزة أو الديك الرومي. أنتم صيادون بارعون حقًا! وهذه الطرائد لم تعطكم الكثير من المال. هيا، يا مهرجين! كل أكاذيبكم معروفة جيداً و يمكنكم العودة إلى المنزل وطهي عشاءكم. لن تأكلوا عشاءنا الفسّاق واحسرتاه! يا

[58] ثقب، فتحة.

إلهي، أين نذهب لنطبخ طعامنا؟ إنه ليس بالكثير على هذا العدد الكبير من الناس، و إلى جانب ذلك، ليس لدينا نارا ولا مكانا[59]. في هذه الساعة كل الأبواب مغلقة، والجميع في الفراش، وأنتم وحدكم تحتفلون في بيوتكم، ولا بد أنكم قساة القلوب لتركنا نبرد في الخارج. افتحوا لنا، أيها الناس الطيبون، مرة أخرى؛ لن نكلفكم أي نفقات. كما ترون، سنحضر الشواء؛ كل ما نحتاجه هو مساحة صغيرة في موقدكم وقليل من اللهب لطهيه، وسنكون في طريقنا.

صانع القنب

هل تعتقد أن هناك مساحة كبيرة في منزلنا، وأن الحطب لا يكلفنا أي شيء؟

حفار القبور

ال فوسويور لدينا بالة صغيرة من القش هنا لإشعال النار، سنكون سعداء بذلك؛ فقط أعطنا الإذن لنضع سفود المشاوي على مدخنتك.

صانع القنب

هذا لن ينفع، أنت مقرف ونحن لا نشفق عليك على الإطلاق. أعتقد أنك ثمل، ولا تحتاج إلى أي شيء، وتريد أن تأتي إلى منزلنا لسرقة نيراننا وفتياتنا.

[59] أن لا يكون لديك نارولا مكان: أن لا يكون لديك منزل.

حفار القبور

وبما أنك لن تستمع إلى أي سبب وجيه، فسوف نقتحم منزلك بالقوة.

صانع القنب

حاول، إذا أردت. نحن منغلقون بما فيه الكفاية لكي لا نخافك. وبما أنك وقح، فلن نرد عليك بعد الآن.

ثم أغلق صانع القنب بصوت عالٍ كوة السقف وصعد على سلم إلى الغرفة في الأسفل. ثم أخذ بيد العروس من يدها، وانضم إليه الشبان من الجنسين، وأخذوا جميعاً يرقصون ويهتفون بمرح بينما كانت العرائس يغنين بصوت حاد وينفجرن في ضحكات عالية كعلامة على الازدراء والتبجح ضد من كانوا في الخارج يحاولون الهجوم. أما المحاصرون فكانوا من جانبهم هائجين: فقد أفرغوا مسدساتهم في الأبواب، وأطلقوا الكلاب تهدر وضربوا الجدران بأصوات عالية، وهزوا المصاريع، وأطلقوا صرخات مروعة؛ وباختصار كان ضجيجاً لا يُسمع، وغباراً ودخاناً لا يُرى، ولكن هذا الهجوم كان مفتعلاً: فلم يكن الوقت قد حان لانتهاك الآداب. فإذا تمكنت أثناء التجول في المكان من العثور على ممر غير محروس أو فتحة من نوع ما أمكنك أن تحاول الدخول على حين غرة، ثم إذا تمكن حامل سفود الشواء من

وضع شوائه على النار، وبذلك تكون قد استوليت على الموقد و انتهت الكوميديا وكان الخطيب هو المنتصر. ولكن لم تكن هناك مخارج كافية لمغادرة المنزل حتى لا تكون الاحتياطات المعتادة قد أهملت، ولم يكن أحد لينتحل لنفسه الحق في استخدام العنف قبل اللحظة المحددة للقتال. وعندما سئموا من القفز والصياح، فكّر صاحب البيت في الاستسلام. فعاد إلى نافذته في الطابق العلوي، وفتحها بحذر، وحيا المحاصرين المحبطين بنفخة من الضحك. - قال: "حسناً، يا فتياني"، يا لكم من مشهد مؤسف! لقد ظننتم أن لا شيء أسهل من الدخول إلى هنا، وأنتم ترون أن دفاعنا جيد. ولكننا بدأنا نشعر بالأسف عليكم، إذا كنتم تريدون الخضوع والقبول بشروطنا.

الحفار

ارفعوا صوتكم أيها الطيبون؛ قولوا ما تحتاجون إليه للاقتراب من الوطن.

صانع القنب

يجب أن نغني يا أصدقائي، ولكن غنوا أغنية لا نعرفها، ولا نستطيع أن نرد عليها بأحسن منها.

- فأجاب حفار القبور، وغنى بصوت قوي: كان الربيع منذ ستة أشهر مضت.

- كنت أمشي على العشب الناضر

- التنزه عبر العشب الناشئ،

فأجاب صانع القنب بصوت أجش قليلاً ولكنه رهيب: ــ هل تسخرون منا، يا قوم المساكين، لأنكم تغنون مثل هذه الأغنية القديمة؟ يمكنك أن ترى أننا نوقفك عند أول كلمة!

- لقد كانت ابنة أمير...

- الذي أراد أن يتزوجها"، فأجابه صانع القنب:

ــ !تحرك، انتقل إلى واحدة أخرى نحن نعرف هذه الأغنية جيداً.

الحفار

هل تريد هذه؟

- في طريق عودتي من نانت...

صانع القنب

ذا وينكر - كنت متعبًا جدًا، كما ترى! كنت متعباً جداً هذا من زمن جدتي. دعونا نرى واحدة أخرى!

الحفار

ذاك اليوم وقد كنت أتنزه.

صانع القنب

على طول هذه الغابة الجميلة! هذا سؤال سخيف! أحفادنا لن يكلفوا أنفسهم عناء الإجابة عليك! هل هذا كل ما تعرفه؟

الحفار

سنخبرك بالكثير من الأمور التي ستنتهي بك في نهاية المطاف إلى البقاء قصيراً. لقد أمضينا ساعة لا بأس بها من الشجار على هذا النحو. وبما أن الخصمين كانا من أقوى مؤلفي الأغاني في البلاد، وكان يبدو أن ذخيرتهما لا تنفد، فقد كان من الممكن أن يستمر ذلك طوال الليل، ولا سيما أن صانع القنب كان مؤذياً بعض الشيء في تركه بعض المراثي تنشد في عشرة أبيات أو عشرين أو ثلاثين بيتاً، متظاهراً بصمته بأنه يعلن هزيمته. ثم ينتصر معسكر العريس ويغنون في جوقة بأعلى أصواتهم وهم يظنون أن الطرف الآخر سيغيب هذه المرة؛ ولكن في منتصف المقطع الأخير كانوا يسمعون صوت العجوز البارد الخشن وهو يصدح بالأبيات الأخيرة، ثم يهتف: - لم يكن عليكم أن تتعبوا أنفسكم بقول هذه الأبيات الطويلة يا أبنائي! كنا نعرفها عن ظهر قلب! غير أن حفار القبور كان يكشر مرة أو مرتين ويعبس في وجهه، ثم يلتفت بتعبير خائب نحو المربيات المنتبهات. وكان حفار القبور ينشد شيئاً قديماً جداً لدرجة أن خصمه قد نسيه، أو لعله لم يعرفه قط؛

ولكن الثرثارين الطيبين كانوا ينشدون في الحال اللحن المنتصر بصوت متجهم كصوت النورس؛ وكان حفار القبور الذي استدعي للاستسلام ينتقل إلى تجارب أخرى. كان الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً في انتظار أي جانب النصر بشرط أن تقدم لها هدية تليق بها. ثم بدأ إنشاد الكسوة على لحن مهيب كأنه ترنيمة كنسية. وقال الرجال في الخارج بنغمات منخفضة في انسجام تام:

افتحي الباب، افتحي

ماري يا حلوتي،

لدي بعض الهدايا الجميلة لأقدمها لكِ يا حبيبتي،

دعينا ندخل.

فأجابت النسوة من الداخل، وبصوت خافت، ونغمة خافتة:

أبي في حزن، وأمي في حزن عظيم،

وأنا ابنة الشكر العظيم.

لفتح بابي في هذه الساعة هنا[60] . وكرر الرجال البيت الأول حتى الشطر الرابع، ثم عدلوه على النحو التالي:

[60] أنا أكثر من أن أفتح بابي في هذه الساعة": أن أستسلم بهذه السرعة.

لي منديل جميل أود تقديمه لك.

أما بالنسبة إلى اسم الخطيبة، فقد ردت النساء بنفس الطريقة التي ردت بها في المرة الأولى. وعلى مدى عشرين بيتًا على الأقل، كان الرجال يعددون جميع الهدايا في الكسوة، ويذكرون دائمًا شيئًا جديدًا في البيت الأخير: (مئزر) جميل، وشرائط جميلة، وزي قماشي، ودانتيل، وصليب ذهبي، وما يصل إلى مائة دبوس لتكتمل سلة العروس المتواضعة. كان رفض الأمهات لا رجعة فيه؛ ولكن في النهاية قرر الفتيان أن يتحدثوا عن زوج وسيم ليقدموا إليهم، فأجابوا بمخاطبة العروس وهم يغنون لها مع الرجال: افتحي الباب، افتحي يا ماري يا جميلتي، إنه زوج وسيم قادم لأخذك، هيا بنا يا حبيبتي فليدخلوا.

3

العُرْسُ

سَحَبَ المُدَبِّرُ على الفور الوتد الخشبي الذي كان يغلق الباب من الداخل: في تلك الأيام، كان هذا القفل الوحيد الذي لا يزال معروفاً في معظم بيوت قريتنا. اقتحمت عصابة العريس بيت العروس، ولكن ليس بدون قتال، فقد أخذ الأولاد المتمركزون في البيت، وحتى الساعي العجوز والنساء العجائز، على عاتقهم حراسة الموقد. وكان على حامل الشواء، مدعومًا بعائلته وأصدقائه، أن يدخل الشواء إلى الموقد. كانت معركة حقيقية، رغم أنهم امتنعوا عن ضرب بعضهم البعض ولم يكن هناك غضب في الصراع. ولكنهما كانا يتدافعان ويضغطان على بعضهما البعض بقوة، وكان هناك الكثير من احترام الذات على المحك في هذا الاختبار للقوة العضلية، بحيث يمكن أن تكون النتائج أكثر جدية مما بدت عليه من خلال الضحك والأغاني. فقد التصق العجوز المسكين الذي كان يصارع كالأسد بالجدار وعصره الجمهور حتى فقد أنفاسه. وتعرض أكثر من بطل للدعس تحت

الأقدام كرهاً، وأدميت أكثر من يد أثناء تشبثه بالشواء. إن هذه الألعاب خطيرة، وقد كانت الحوادث في الآونة الأخيرة خطيرة بما فيه الكفاية حتى عزم مزارعونا على ترك حفلات السباقات في هذه الألعاب. وأعتقد أننا شاهدنا آخر واحدة منها في حفل زفاف فرانسواز ميلانت[61]، وحتى في ذلك الحين كان العراك مجرد محاكاة. لكن الشجار كان لا يزال عاطفيًا للغاية في حفل زفاف جيرمان. كانت مسألة شرف لكلا الطرفين في غزو منزل غيليت والدفاع عنه. كان السفود الحديدي الضخم ملتويًا كالمسمار تحت المعصمين المتصارعين المتحمسين اللذين كانا يتعاركان عليه. أشعلت طلقة مسدس النار في كمية قليلة من دمى القنب الموضوعة على رف في السقف. وأدى هذا الحادث إلى تشتيت الانتباه، وبينما كان الآخرون يسارعون إلى إخماد النار، نزل حفار القبور الذي كان قد صعد إلى العلية دون أن يلاحظه أحد من المداخن واستولى على السفود في الوقت الذي كان فيه الراعي الذي كان يدافع عنه عند الموقد، ورفعه فوق رأسه ليحول دون انتزاعه منه. وقبل الهجوم بوقت قصير، كان الرعاة قد حرصوا على إطفاء النار خوفاً من أن يقع أحدهم في النار فيحترق وهو يصارع بالقرب منها. واستولى

[61] كانت فرانسواز ميلانت خادمة في منزل جورج ساند.

حفار القبور المؤذي، بالاتفاق مع الراعي، على الكأس دون صعوبة وألقى به في الأرضين. كان هذا كل شيء، لم يعد مسموحًا له بلمسه. ثم قفز إلى وسط الغرفة وأشعل قطعة من القش حول سفود المشاوي ليحاكي طبخ الشواء، وكانت الإوزة قد تقطعت أشلاء وتناثرت أطرافها المتناثرة على الأرض. كان هناك الكثير من الضحك والمناقشات المتباهية. وأظهر الجميع الضربات التي تلقوها، وبما أن يد الصديق هي التي ضربت في أغلب الأحيان لم يتذمر أحد أو يتشاجر. فرك الحفّار الذي كان نصفه مفلطحاً ظهره قائلاً إنه لم يكن يهتم كثيراً، ولكنه احتج على خداع شريكه حفار القبور، ولو لم يكن نصف ميت لما كان الموقد قد غلبه بهذه السهولة. كنست الخادمات الأرض وأعيد النظام. كانت المائدة مغطاة بأباريق من النبيذ الجديد. وعندما انتهين من شرب نخب بعضهن البعض والتقطن أنفاسهن، أُحضر الخطيب إلى منتصف الغرفة، وكان عليه أن يخضع لاختبار جديد وهو مسلح بعصا. وأثناء الصراع، كانت العروس مخبأة مع ثلاث من رفيقاتها من قبل أمها وعرّابتها وخالاتها اللاتي أجلسن الفتيات الأربع على مقعد في زاوية بعيدة من الغرفة وغطينهن بملاءة بيضاء كبيرة. وكان قد اختيرت الرفيقات الثلاث ليكون طولهن نفس طول ماري، وقرونهن نفس طولها، بحيث أن الملاءة

التي تغطي رؤوسهن وتلفهن تحت أقدامهن جعلت من المستحيل تمييز إحداهن عن الأخرى. لم يُسمح للعريس أن يلمسهن إلا بطرف عصاه، وفقط لتعيين من يعتبرها زوجته. وقد أُعطي له الوقت الكافي للفحص، ولكن بعينيه فقط، وكانت الخادمات بجانبه يراقبن بصرامة للتأكد من عدم وجود أي خداع. و إذا ما أخطأ، لم يكن بإمكانه أن يرقص طوال المساء مع خطيبته، بل فقط مع تلك التي اختارها بالخطأ. وكان جيرمان وهو يرى نفسه في حضرة هذه الأشباح ملفوفاً في نفس الكفن يخشى كثيراً من الوقوع في الخطأ؛ والواقع أن هذا قد حدث لكثيرين غيره، لأن الاحتياطات كانت تتخذ دائماً بعناية واعية. كان قلبها يخفق بشدة. وحاولت ماري الصغيرة أن تتنفس بصعوبة وأن تهز الملاءة قليلاً، ولكن منافستيها الخبيثتين فعلا نفس الشيء، ودفعا الملاءة بأصابعهما، وكان هناك علامات غامضة كثيرة بقدر ما كان هناك فتيات تحت الحجاب. وكانت القرون المربعة تمسك الملاءة بشكل متساوٍ لدرجة أنه كان من المستحيل رؤية شكل الجبهة المرسومة بطياتها. وبعد عشر دقائق من التردد، أغمض جيرمان عينيه وأسلم روحه إلى الله، ومد عصاه عشوائياً. فلامس جبين ماري الصغيرة، فألقت بالملاءة بعيداً وهي تصرخ في انتصار. ثم سمح له بتقبيلها، ورفعها بين ذراعيه القويتين،

وحملها إلى وسط الغرفة وافتتح معها الحفلة التي استمرت حتى الثانية صباحاً. ثم انفض الحفل وتجمعوا مرة أخرى في الساعة الثامنة. وبما أنه كان هناك عدد من الشبان من المنطقة المجاورة، ولم يكن لديهم أسرّة للجميع، فقد استقبلت كل ضيفة من القرية شابتين أو ثلاث شابات في سريرها، بينما ذهب الشبان إلى الاستلقاء على تبن المزرعة. يمكنك أن تتخيل أنهم لم يناموا هناك كثيرًا، لأن كل ما كانوا يفكرون فيه هو مصارعة بعضهم البعض وتبادل المزاح ورواية القصص الوحشية. في حفلات الزفاف، هناك دائمًا ثلاث ليالٍ بلا نوم لا يندمون عليها أبدًا. وفي الوقت المحدد للمغادرة، وبعد تناول حساء اللبن المتبل بجرعة قوية من الفلفل لفتح الشهية، من أجل وعدنا بأن تكون وليمة العرس غزيرة، فاجتمعنا في المزرعة. وبما أن أبرشيتنا كانت قد ألغيت، كان علينا أن نذهب إلى مسافة نصف فرسخ لنحصل على بركة العرس. كان الجو لطيفاً وبارداً، ولكن الطرقات كانت سيئة جداً، فركب كل واحد منا حصاناً، وأخذ كل رجل منا رفيقاً صغيراً أو كبيراً. وانطلق جيرمان على الفرس (لا غريز) التي كانت مهيأَّة جيداً ومعتنى بها ومزينة بالأشرطة وكانت تهرول وتقذف النار من منخريها. ذهب لإحضار خطيبته من الكوخ المصنوع من القش مع صهره جاك، الذي امتطى لا غريز العجوز، وأخذ الأم

غيليت الطيبة في ردفها بينما عاد جيرمان إلى المزرعة حاملاً زوجته الصغيرة العزيزة في جو من الانتصار. ثم انطلق الموكب البهيج مصحوباً بالأطفال راجلين وهم يركضون ويطلقون المسدسات ويجعلون الخيول تقفز. امتطت الأم موريس عربة صغيرة مع أطفال جيرمان الثلاثة والمنشدين. كانوا يقودون الطريق على صوت آلاتهم الموسيقية. كان بيتي بيير وسيماً جداً لدرجة أن الجدة العجوز كانت فخورة به. لكن الطفل المتهور لم يبق إلى جانبها طويلاً. وعندما اضطروا أن يتوقفوا للحظة في منتصف الطريق في أحد الممرات الصعبة، انسلّ بعيداً وذهب يتوسل إلى أبيه ليجلسه أمامه على الرمادية "لا غريز".

- فأجابه جيرمان: (إن هذا سيجلب لنا بعض النكات السيئة!

- قالت ماري الصغيرة: "لا يهمني حقًا ما يقوله الناس من سان شارتييه". أرجوك خذه يا جيرمان: سأكون فخورة به أكثر من فخري بفستان زفافي. استسلم جيرمان، واندفع الثلاثي الجميل بين الصفوف في عدْوٍ منتصر من الرمادية. والواقع أن أهل سان شارتييه، على الرغم من سخريتهم الشديدة وسخريتهم من الأبرشيات المجاورة التي انضمت إلى أبرشياتهم، لم يفكروا في الضحك عندما رأوا مثل هذا العريس الوسيم والعروس الجميلة والطفل

الذي كان يمكن أن يكون موضع حسد زوجة ملك. وكان بيتي بيير يرتدي حلة كاملة من القماش الأزرق مع صدرية حمراء أنيقة وقصيرة جداً حتى أنها بالكاد تصل إلى خصره.

تحت ذقنه. كان خياط القرية قد ضغط على خصره بإحكام لدرجة أنه لم يستطع ضم ذراعيه الصغيرتين معاً. وكم بدا فخوراً! كان يرتدي قبعة مستديرة ذات ضفيرة سوداء وذهبية وريشة طاووس تبرز بفخر من خصلة من ريش طائر غينيا. وغطى كتفه باقة من الزهور أكبر من رأسه، وغطت الشرائط التي كانت تطفو حتى قدميه. كان صانع القنب الذي كان أيضاً الحلاق المحلي وصانع الشعر المستعار قد قص شعره على شكل دائرة، وغطى رأسه بوعاء وقص كل ما كان بارزاً، وهي طريقة معصومة لضمان عمل الإزميل. هكذا كان الطفل المسكين يرتدي ملابسه على هذا النحو، وكان الطفل أقل شاعرية بالتأكيد من شعره الطويل الذي كان يتطاير مع الريح، ومن جلد الغنم الذي كان يرتديه القديس يوحنا المعمدان؛ ولكنه لم يصدق شيئاً من ذلك، وكان الجميع معجبين به قائلين إنه كان يبدو كرجل صغير. لقد انتصر جماله على كل شيء، وما الذي لا يستطيع أن ينتصر على جمال الطفولة الذي لا يضاهيه جمال؟ وكانت أخته الصغيرة سولانج ترتدي لأول مرة في حياتها

كورنيت بدلاً من الكورنيت الهندي الذي ترتديه الفتيات الصغيرات حتى سن الثانية أو الثالثة. ويا له من كورنيت كان أعلى وأعرض من جسم الفتاة المسكينة كله. وكم كانت تعتقد أنها جميلة! ولم تجرؤ على أن تدير رأسها، ووقفت متصلبة جداً ظناً منها أنها ستخطئ العروس. أما سيلفان الصغير، فقد كان لا يزال في ثوبه، وكان نائماً في حضن جدته، ولم يكن لديه أي فكرة عن شكل العرس. ونظر جيرمان إلى طفليه بحب، وعند وصوله إلى دار البلدية قال لخطيبته: (انظري يا ماري، إنني أسعد قليلاً من اليوم الذي جئت بك من غابة شانتيلوب إلى البيت، وأنا أظن أنك لن تحبيني أبداً؛ لقد أخذتك بين ذراعي لأضعك على الأرض كما هو الحال الآن؛ ولكني ظننت أننا لن نلتقي ثانية على الرمادية المسكينة وهذا الطفل على ركبنا. ها أنا ذا، أحبك كثيراً، وأحب هؤلاء الصغار المساكين كثيراً، وأنا سعيد جداً لأنك تحبني وتحبهم وتحب والديك، وأحب أمك وأصدقائي كثيراً، وأحب الجميع اليوم، حتى تمنيت لو أن لي ثلاثة أو أربعة قلوب تكفيني. صحيح أن قلبًا واحدًا أقل من أن يضم هذا العدد الكبير من الصداقات والكثير من الرضا! هذا يجعلني أشعر بالغثيان في معدتي.

كان هناك حشد على أبواب دار البلدية والكنيسة لمشاهدة العروس الجميلة. ولمَ لا نذكر زيها الذي كان يناسبها تماماً؟ كان لباسها المصنوع من الموسلين الشاحب والمطرز بالكامل، وكان لها لحية[62] مزركشة بالدانتيل. وفي تلك الأيام، لم تكن الفلاحات يسمحن لأنفسهن بإظهار شعرة واحدة؛ وعلى الرغم من أنهن كن يخفين رؤوساً رائعة من الشعر تحت الكورنيت الذي يلفنه بشرائط من الخيوط البيضاء لدعم غطاء الرأس، حتى اليوم كان من غير اللائق والمخجل أن يظهرن للرجال حاسرات الرأس. غير أنهن في أيامنا هذه يتركن عقالاً رقيقاً على جباههن مما يجعلهن في غاية الجاذبية. ولكني أفتقد تسريحة الشعر الكلاسيكية التي كانت سائدة في زماني؛ فقد كان لتلك الأربطة البيضاء العارية على الجلد طابع العفة القديمة التي بدت لي أكثر وقاراً، لقد كان جمالاً لا يمكن التعبير عن سحره وجلاله الساذج. وكانت ماري الصغيرة لا تزال ترتدي غطاء الرأس، وكان جبينها من البياض والنقاء بحيث يتحدى بياض القماش أن يغمقه. وعلى الرغم من أنها لم تكن قد أغمضت عينيها طوال الليل، إلا أن هواء الصباح وفوق كل شيء بهجة داخلية لروح صافية كالسماء، ثم شعلة سرية صغيرة احتواها حياء المراهقة

[62] أجزاء غطاء الرأس التي تنزل على جانبي الوجه.

جعلت وجنتيها تتوهجان بعذوبة زهرة الخوخ في أول أشعة أبريل. أما منديلها الأبيض الذي كان يغطى صدرها بعفة فلم يكن يظهر منه سوى تقاطيع رقبة رقيقة مستديرة كعنق الحمامة؛ وكان ثوبها من القماش الأخضر الآس الناعم يحدد خصرها الصغير الذي بدا كاملاً ولكنه لم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد. وكانت ترتدي مئزراً حريرياً أرجوانياً من الحرير مع المريلة التي أخطأت نساء قريتنا في التخلي عنها والتي كانت تضفي الكثير من الأناقة والحياء على ثدييها البالغين. أما اليوم فهن يتباهين بمناديلهن بمزيد من الفخر، ولكن لم يعد في زينتهن تلك الزهرة الجميلة من الاحتشام القديم التي كانت تجعلهن يبدون كعذارى هولباين. إنهن أكثر غزلًا وأكثر رشاقة. ففي الماضي كان حسن الخلق نوعاً من الصلابة الشديدة التي جعلت ابتساماتهن النادرة أعمق وأكثر مثالية. وفي القربان، وضع جيرمان في يد خطيبته القطع الفضية الثلاث عشرة المعتادة. ووضع خاتماً من الفضة في إصبعها، وهو نفس الشكل الذي كان مستخدماً منذ قرون، ولكن تم استبداله الآن بخاتم زواج من الذهب. وعند مغادرته الكنيسة، قالت له ماري بهدوء: "أهذا هو الخاتم الذي أردته؟ الخاتم الذي طلبته منك يا جيرمان؟

- نعم"، أجابها: "نعم، الخاتم الذي كان في إصبع كاثرين عندما ماتت. إنه نفس خاتم زواجي في كلتا الزيجتين.

- شكراً لك يا جيرمان"، قالت الشابة بنبرة جادة وثاقبة. سأموت به، و إذا كان أمامك فيمكنك الاحتفاظ به لزفاف صغيرتك سولانج.

4

الملفوف

عدنا على ظهر الحصان وانطلقنا عائدين إلى بيلير بسرعة كبيرة. كانت الوجبة رائعة، واستمرت الوجبة التي تخللها الرقص والغناء حتى منتصف الليل. لم يغادر العجوزان المائدة لمدة أربع عشرة ساعة. قام حفار القبور بالطبخ وأجاد في ذلك. وكان مشهوراً بذلك، وكان يترك موقده ليأتي ويرقص ويغني بين كل خدمة وأخرى. لكن الأب بونتمبس المسكين كان مصاباً بالصرع! من كان ليخمن ذلك؟ لقد كان نشيطاً وقوياً ومبتهجاً كشاب صغير. وذات يوم وجدناه ميتاً كالميت، وقد لواه مرضه في حفرة في أول الليل. حملناه إلى المنزل في عربة يدوية وقضينا الليلة في تمريضه. وبعد ثلاثة أيام كان في حفل الزفاف، يغني كالطائر ويقفز ويهتز كالعنزة على الطريقة القديمة. وعند خروجه من العرس كان يحفر قبراً ويسمر الجعة. وكان يفعل ذلك في ورع، وعلى الرغم من أنه لم يكن يبدو في مزاج جيد بعد ذلك، إلا أنه احتفظ بانطباع شرير عجل بعودة نوبته. وكانت زوجته، وهي مشلولة، لم تتحرك من

كرسيها منذ عشرين سنة. وأمه تبلغ من العمر مائة وأربع سنوات ولا تزال على قيد الحياة. أما هو، ذلك الرجل المسكين، المرح جداً، اللطيف جداً، المسلي جداً، فقد قتل في العام الماضي عندما سقط من عليته على الرصيف. ولا شك أنه كان يعاني من نوبة قاتلة من المرض، وكالعادة كان مختبئاً في القش حتى لا يخيف أهله أو يزعجهم. وهكذا انتهت حياته بشكل مأساوي حياة غريبة مثله، مزيج من الكآبة والجنون، والفظاعة والمرح، وفي خضم ذلك ظل قلبه طيباً وشخصيته ودودة. ولكننا نأتي الآن إلى اليوم الثالث من أيام الزفاف، وهو اليوم الأكثر غرابة، والذي ما زال قائماً بكل صرامته حتى يومنا هذا. ولن نتكلم عن النخب الذي يؤخذ إلى سرير العروس؛ فهي عادة سخيفة تخدش حياء العروس وتؤذي حياء الفتيات الصغيرات اللاتي يحضرن. وأعتقد أنها عادة في جميع الأقاليم، وهي عادة ليست خاصة بنا، بل هي عادة في جميع الأقاليم. فكما أن حفل الكسوة رمز للاستيلاء على قلب العروس وبيتها، فإن حفل الملفوف رمز لخصب غشاء البكارة. بعد الغداء في اليوم التالي للزفاف يبدأ هذا الأداء الغريب، الذي نشأ في بلاد الغال، ولكن مع مروره في المسيحية البدائية أصبح تدريجياً نوعاً من الغموض، أو الأخلاق التهريجية في العصور الوسطى. يختفي صبيان (أكثر

المجموعة بهجة وحسن تصرف) أثناء الغداء، ويذهبان لارتداء ملابسهما، ثم يعودان في النهاية مصحوبين بالموسيقى والكلاب والأطفال وطلقات المسدس. وهما يمثلان زوجين متسولين، زوج وزوجة، مغطيين بأكثر الخرق البائسة. الزوج هو الأكثر قذارة من الاثنين: فالرذيلة هي التي حطت من قدره على هذا النحو؛ والزوجة ليست تعيسة ومهانة إلا بسبب اضطرابات زوجها. فَأَمَّا الزَّوْجُ فَلَهُ صِفَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَكُلُّهَا لَهَا مَعْنًى. ويطلق عليه بلا مبالاة رجل القش، لأنه يلبس باروكة مصنوعة من القش والقنب، ولكي يخفي عورته التي لا تسترها خرقه بشكل جيد، يلف ساقيه وجزءًا من جسمه بالقش. كما يصنع أيضًا بطنًا أو سنامًا كبيرًا من القش أو التبن مخبأ تحت ثوبه. وَالْبُرْقُعُ، لِأَنَّهُ يُغَطَّى بِالْخِرَقِ. وأخيرًا، الوثني، وهو أكثر أهمية، لأنه من المفترض أن تلخص سخريته وفجوره نقيض كل الفضائل المسيحية. يأتي ووجهه ملطخ بالسخام وفضلات النبيذ، وأحيانًا يرتدي قناعًا بشعًا. ويستخدم كأسًا ترابيًا رديئًا متكسرًا أو قبقابًا قديمًا يتدلى من حزامه بخيط ليستجدي صدقة من الخمر. لا يرفضه أحد، ويتظاهر بالشرب، ثم يسكب النبيذ على الأرض، كعلامة على الإراقة. وفي كل خطوة يخطوها يسقط ويتدحرج في الوحل، متظاهرًا بأنه في حالة سكر مخزٍ للغاية. تركض زوجته المسكينة خلفه

وتلتقط نفسها وتستغيث وتستنجد، وتنتزع شعر القنب الذي يبرز في خصلات شعرها الخشن من كورنيتها القذرة، وتبكي على سوء حال زوجها وتعاتبه عتاباً مثيراً للشفقة. - "أيها البائس!" تقول له: "انظر إلى ما أوصلنا إليه سوء سلوكك السيئ! مهما غَزَلْتُ لك، وعملت لك، وأصلحت ثيابك، فإنك دائمًا ما تمزق وتوسخ نفسك. لقد أكلتَ أملاكي الفقيرة، وأطفالنا الستة على القش، ونحن نعيش في إسطبل مع الدواب، وها نحن قد صرنا نتسول الصدقات، ومع ذلك فأنت قبيح جداً، ومقرف جداً، ومحتقر جداً، حتى أنهم عما قريب سيرمون خبزنا علينا كالكلاب. واحسرتاه! يا شعبي المسكين، أشفقوا علينا، أشفقوا عليَّ! أنا لا أستحق قدري، وما من امرأة حظيت بزوج أقذر وأبغض من زوجي. ساعدوني على حمله، و إلا سحقته العربات كزجاجة مكسورة قديمة، وسأكون أرملة، وهذا سيكون نهاية حزني، مع أن الجميع يقولون إنه سيكون سعادة عظيمة لي. هذا هو دور البستانية ونحيبها المستمر طوال المسرحية. لأنها كوميديا حرة حقيقية، مرتجلة، تمثل في الهواء الطلق، على الدروب، وعبر الحقول، تغذيها كل حادثة عرضية تأتي، ويشارك فيها الجميع، الناس من أهل العرس ومن خارجه، والضيوف في البيوت والمارة في الطرقات لمدة ثلاث أو أربع ساعات من النهار، كما

سنرى. والموضوع ثابت لا يتغير، ولكن التطريز فيه لا حصر له، وهنا يجب أن نرى غريزة التقليد وغزارة الأفكار التهريجية والفصاحة والظرف، بل والفصاحة الطبيعية التي يتحلى بها فلاحونا. وعادة ما يعطى دور البستاني لرجل نحيف عديم اللحية نضر البشرة، يعرف كيف يضفي على شخصيته صدقًا كبيرًا، ويمثل دور اليأس الهزلي بما يكفي من الطبيعية حتى نطرب ونحزن في نفس الوقت كما لو كان حدثًا حقيقيًّا. إن هؤلاء الرجال النحيفين عديمي اللحية ليسوا نادرين في ريفنا، والغريب أنهم يكونون أحياناً أكثر الناس تميزاً بقوتهم العضلية. وبمجرد التأكد من سوء حظ المرأة، أقنعها الشباب الحاضرون في العرس بترك زوجها السكير والانضمام إلى المرح. يقدمون لها أذرعهم ويقودونها بعيدًا. وشيئًا فشيئًا تستسلم شيئًا فشيئًا، وتنجرف بعيدًا وتبدأ بالركض، تارة مع رجل، وتارة مع الآخر، فتتخذ مظهرًا فاسقًا: أخلاق جديدة، وسوء سلوك الزوج يثير سوء سلوك الزوجة. ثم يصحو الوثني من سكرته، ويبحث عن صاحبته بعينيه، ويتسلح بحبل وعصا، ويجري وراءها. فيجعلانه يركض، ويختبئان، ويمرران المرأة من واحد إلى آخر، ويحاولان إلهاء الرجل الغيور وخداعه. يحاول أصدقاؤه أن يجعلوه يثمل. وأخيرًا يلتحق بزوجته الخائنة ويريد أن يضربها. إن أكثر ما يلاحظ في هذه

المحاكاة الساخرة لمآسي الحياة الزوجية هو أن الرجل الغيور لا يهاجم أبدًا أولئك الذين يأخذون زوجته منه. إنه في غاية الأدب والحذر معهم، ولا يريد أن يعتدي إلا على المذنبة لأنها من المفترض أنها غير قادرة على مقاومته. ولكن ما أن يرفع عصاه و يهيئ حبله لربط المذنب، حتى يتدخل جميع الرجال في حفل الزفاف ويلقون بأنفسهم بين الزوجين. لا تضربها، لا تضرب زوجتك أبدًا، هذه هي الصيغة التي تتكرر مرارًا وتكرارًا في هذه المشاهد. يتجرّد الزوج من سلاحه ويضطر إلى مسامحة زوجته وتقبيلها، وسرعان ما يظهر أنه يحبها أكثر من أي وقت مضى. وينطلق معها متشابك الذراعين، يغني ويرقص، إلى أن تأتيه نوبة جديدة من السكر، فتطرحه على الأرض؛ ثم تبدأ نواح الزوجة من جديد، ويبدأ رثاء الزوجة من جديد، ويأسها، ومغامراتها المفتعلة، وغيرة الزوج، وتدخل الجيران، و إصلاح ذات البين. هناك تعاليم ساذجة، بل فجة في كل هذا، لها نكهة العصور الوسطى القوية، ولكنها لا تزال تترك أثرها، إن لم يكن على المتزوجين، الذين هم اليوم أكثر من أن يكونوا عاشقين أو أكثر تعقلاً من أن يحتاجوا إليها، فعلى الأقل على الأطفال والمراهقين. هذا الوثني يخيف الفتيات الصغيرات ويثير اشمئزازهن، فيركض وراءهن ويتظاهر بأنه يريد تقبيلهن، فيفرن منهن بعاطفة لا علاقة لها باللعب. وجهه الملطخ

وعصاه الغليظة (رغم أنها غير مؤذية) تجعل الأطفال يصرخون. إنها كوميديا الأخلاق في أبسط صورها، ولكنها أيضًا أكثر ما يلفت النظر. بمجرد الانتهاء من المهزلة، يتم إحضار الملفوف. يتم إحضار نقالة ويوضع عليها الوثني مزودة بمجرفة وحبل وسلة كبيرة. يرفعه أربعة رجال أقوياء على أكتافهم. وتتبعه زوجته سيراً على الأقدام، ويأتي الشيوخ في جماعة خلفه في وقار وتأمل، ثم يسير حفل الزفاف في أزواج على وتيرة تنظمها الموسيقى. وتنطلق طلقات المسدسات مرة أخرى، وتعوي الكلاب أكثر من أي وقت مضى عند رؤية الوثني القذر محمولاً منتصراً. الأطفال يبخّرونه بسخرية بقباقيب في نهاية الخيط. لكن لماذا هذا الحفاوة بشخصية بغيضة كهذه؟ نحن في مسعى لغزو الملفوف المقدس، شعار الخصوبة الزوجية، وهذا الأحمق السكير هو الذي يستطيع وحده أن يضع يده على النبتة الرمزية. هناك بلا شك لغز ما قبل المسيحية هنا، يذكرنا بمهرجان ساتورناليا[63]، أو بعض العربدة القديمة. ربما هذا الوثني، الذي هو في نفس الوقت البستاني بامتياز، ليس أقل من برياب نفسه، إله الحدائق والفجور، إله لا بد أنه كان عفيفًا وجادًا في أصله، مثل سر التكاثر، ولكن فسق الأخلاق وضلال الأفكار قد حط من قدره

[63] في الأساطير الرومانية، احتفالات قديمة كانت تقام سنويا للإله ساتورن، إله الحصاد.

بشكل لا يمكن إدراكه. ومهما يكن من أمر، فإن مسيرة النصر تصل إلى بيت العروس وتدخل إلى حديقتها. وهناك يتم اختيار أجمل الملفوف، ولا يتم ذلك بسرعة، إذ يعقد الشيوخ مجلسًا ويتجادلون على مد البصر، وكل منهم يترافع عن الملفوف الذي يبدو الأنسب. يتم التصويت، وعندما يتم الاختيار، يربط البستاني حبله حول الساق ويبتعد بقدر ما يسمح به حجم الحديقة. يتأكد البستاني من عدم تلف الخضروات المقدسة في سقوطها. أما المازحون في العرس، أو الحمال، أو حفار القبور، أو النجار، أو صانع القباقيب (باختصار، كل من لا يعملون في الأرض، والذين يقضون حياتهم في بيوت الآخرين، فهم مشهورون بأن لديهم - وهم بالفعل - ذكاء وثرثرة أكثر من "البستانيين" (عمال المزارع البسطاء)، يصطفون حول الملفوف. يحفر أحدهم خندقًا بمجرف، عميقًا جدًا بحيث يبدو وكأنه يقطع شجرة بلوط. أما الآخر فيضع على أنفه قطعة خشبية أو كرتونية[64] على أنفه ليحاكي نظارة: يقوم بدور المهندس، يقترب ويبتعد ويرفع خطة ويحدق في العمال ويرسم الخطوط ويتصرف كالمتحذلق، ويصرخ بأن كل شيء سيتلف، ويجعلهم يتركون العمل ويستأنفونه كما يشاء، ويوجه العمل بأطول وأغرب ما يمكن. هل هذه إضافة

[64] 1 نوع من ألعاب الورق التي يستخدمها الجنود ويلبس فيها الخاسر قطعة صغيرة من الخشب المشقوق تسمى "دروغ" على أنفه (ليتريه).

إلى الشكل القديم للمراسم القديمة، في سخرية من المنظرين عموماً الذين يحتقرهم الفلاح العرفي احتقاراً مطلقاً، أو كرهاً للمساحين الذين ينظمون سجل الأراضي ويقسمون الضرائب، أو أخيراً لموظفي الطرق والجسور الذين يحولون المناطق المشاعة إلى طرق، ويتخلصون من التجاوزات القديمة العزيزة على الفلاح؟ لدرجة أن هذه الشخصية في الكوميديا تسمى المساح، وأنه يبذل قصارى جهده ليجعل نفسه غير محتمل لمن يحمل المعول والمجرفة. وأخيرًا، وبعد ربع ساعة من الصعوبة والتحايل لتجنب قطع جذور الملفوف ونقله دون ضرر، بينما تُلقى على الحاضرين مجارف من التراب (سيئ جدًا لمن لا يسحب بسرعة كافية؛ حتى لو كان أسقفًا أو أميرًا، يجب أن يتلقى معمودية الأرض)، يسحب الوثني الحبل، وتمد المرأة الوثنية مئزرها، ويسقط الملفوف بشكل مهيب وسط هتافات المتفرجين. ثم يتم إحضار السلة، ويضع الزوجان الوثنيان الملفوف فيها بكل عناية واحتياطات. ويحيطونه بالتراب الطازج ويدعمونه بالعصي والرباطات كما تفعل فتيات المدينة في زهور الكاميليا الرائعة التي يضعنها في أصصها الرائعة؛ ويضعون التفاح الأحمر في نهاية الأعواد، وأغصان الزعتر والمريمية والغار في كل مكان؛ ويزينون كل شيء بشرائط وأشرطة؛ ويحملون الكأس على

النقالة، ومعهم الوثنية التي يجب أن تحافظ على توازنه وتحميه من الحوادث، وأخيرًا يغادرون الحديقة. بترتيب جيد وبسرعة المشي. ولكن عندما يحين وقت عبور الباب، تمامًا كما هو الحال عندما يحين وقت دخول فناء منزل العريس، تقف عقبة وهمية في الطريق. فيتعثر حاملو العبء ويتعثرون، ويطلقون صيحات تعجب عالية، ويتحركون إلى الوراء وإلى الأمام مرة أخرى، ويتظاهرون بالاستسلام تحت ثقل العبء كما لو كانت تصدهم قوة لا تقهر. وطوال الوقت، يصيح المساعدون ويثيرون ويهدئون العربة البشرية.

- جميل، جميل يا طفلتي! هناك، هناك، شجاعة! انتبه! كن صبوراً! انبطح! الباب منخفض جداً! شديه، إنه ضيق جدا! قليلا إلى اليسار، الآن إلى اليمين! هيا، من القلب، أنت هناك! هكذا، في سنوات الحصاد الوفير، تجد عربة الثور المثقلة بالعلف أو الحصاد، في سنوات الحصاد الوفير، نفسها واسعة جداً أو مرتفعة جداً لتدخل إلى رواق الحظيرة. هكذا يتم الصراخ على الحيوانات القوية لتثبيتها أو لإثارتها، هكذا، بمهارة وجهد قوي، يتم دفع جبل الثروات تحت قوس النصر الريفي دون أن ينهار. إن العربة الأخيرة، التي تسمى الجربود، هي التي تتطلب هذه الاحتياطات بشكل خاص، لأنها أيضًا مهرجان ريفي، ويوضع آخر حزم مأخوذة من آخر ثلم في أعلى العربة مزينة بشرائط

وأزهار مثل جباه الثيران ومزود الراعي. وبهذه الطريقة، يكون دخول الكرنب إلى المنزل بهذه الطريقة محاكاة للازدهار والخصوبة التي يمثلها. وبمجرد دخوله إلى فناء العريس، يتم إخراج الملفوف وحمله إلى أعلى نقطة في المنزل أو الحظيرة. إذا كان هناك مدخنة أو جملون أو حمام أعلى من الأسطح الأخرى، فيجب حمله إلى أعلى نقطة في المنزل بأي ثمن. يصطحبها الوثني إلى هذه النقطة، ويثبتها في مكانها ويصب فوقها إبريقًا كبيرًا من النبيذ، بينما تطلق طلقات المسدس والتواءات الوثني المبهجة إيذانًا بتدشينها. بدأت نفس المراسم مرة أخرى على الفور. يتم حفر ملفوف آخر في حديقة العريس ويحمل بنفس الشكليات إلى السطح الذي تخلت عنه زوجته للتو لتلحق به. تبقى هذه التذكارات هناك إلى أن تدمر الرياح والأمطار السلال وتجرف الملفوف. لكنهم يعيشون هناك لفترة كافية لإعطاء بعض فرص النجاح للتنبؤات التي يطلقها الشيوخ والعجائز وهم يحيونه:

- ويقولون للملفوف الجميل: أيها الملفوف الجميل، عش وأزهر حتى ترزق عروسنا الشابة بحفيد جميل قبل نهاية العام[65]؛ لأنك لو مت بسرعة لكان ذلك علامة العقم، ولكان قيامك على بيتها نذير شؤم. لقد تأخر الوقت بالفعل

[65] هنا يمكننا أن نرى من أين يأتي التعبير الشائع: يولد الأطفال في الملفوف.

عندما تتم كل هذه الأمور. لم يتبقَّ سوى أن ندلّ والديّ الزوجين الروحيين على الطريق. عندما يكون هؤلاء الآباء المفترضين بعيدين، ترافقهم الموسيقى وحفل الزفاف بأكمله إلى حدود الرعية. هناك، نرقص مرة أخرى في الطريق ونحتضنهم. بالانفصال عنهما. ثم يغتسل الوثني وزوجته بعد ذلك ويرتديان ملابسهما كما ينبغي، إذا لم يكن التعب الذي أصابهما قد أجبرهما على أخذ قيلولة. وفي منتصف ليلة اليوم الثالث من زفاف جيرمان كان الرقص والغناء والأكل لا يزال قائماً في المطير دي بيلير. لم يتمكن الشيوخ الجالسون على المائدة من المغادرة، ولسبب وجيه. ولم يستعيدوا أرجلهم ومعنوياتهم إلا في فجر اليوم التالي. وبينما هم عائدون إلى بيوتهم صامتين متعثرين، خرج جرمان فخوراً ومستعداً لربط ثيرانه، تاركاً رفيقه الشاب في سبات عميق حتى شروق الشمس. وبدا له صوت القبرة وهي تغني وهي تصعد إلى السماء، وكأنه صوت قلبه وهو يشكر العناية الإلهية. وبدا لها الصقيع الساطع على الشجيرات الهزيلة وكأنه بياض أزهار أبريل قبل أن تظهر أوراقها. كانت الطبيعة كلها ضحكات وصفاء بالنسبة له. وكان بيير الصغير قد ضحك وقفز كثيراً في اليوم السابق حتى أنه لم يأت لمساعدته في قيادة ثيرانه، ولكن جيرمان كان سعيداً بأن يكون وحده. وجثا على ركبتيه

في الأخدود الذي كان على وشك أن يقطعه، وتلا صلاة الصبح بانفعال شديد حتى سالت دمعتان على خديه اللذين كانا لا يزالان رطبين بالعرق. كنا نسمع من بعيد ترانيم الفتيان الصغار من الرعايا المجاورة، الذين كانوا يغادرون عائدين إلى بيوتهم، والذين كانوا يرددون بصوت أجش قليلاً ترانيم اليوم السابق المبهجة.

تم بحمد الله.